الفتوحات الربانية

الناشر: المكتب المصري الحديث

٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة - تليفون: ٣٩٣٤١٢٧

٧ شارع نوبار المنشية - الاسكندرية - تليفون: ٤٨٢٦٦٠٢

عبد الحميد كشك

الفتوحات الربانية

في الصبر والإرشادات النبوية

«قد جاءكم بصائر من ربكم: فمن أبصر: فلنفسه، ومن عمي: فعليها وما أنا عليكم بحفيظ»

قرآن كريم

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد : سيد الشاكرين ، وإمام المرسلين . . .

وبعد :

فهذه نفحات مباركة من هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ... نستلهم منها الحكمة ، ونستنبط منها العبرة والموعظة ... التى تنير لنا مسالك الحياة ، وتضيء لنا دياجير الظلمة ... حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها ، وكى لا تضل نفس بعد هداها .

وكفى بالله وليـاً . . .

وكفى بالله نصيراً . . .

وبعد :

فهذه مجموعة من النفحات النبوية المباركة ، التى تأخذ بيد السالك الى طريق النجاة ، وتهديه إلى صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . . .

ألا إلى الله تصير الأمور . . .

عبد الحميد كشك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأصلى وأسلم صلاة وتسليما يليقان بمقام أمير الأنبياء وإمام المرسلين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً خاتم الأنبياء والمرسلين . صل اللهم وسلم وبارك على هذا النبي الأمين ، وعلى آله وصحابته الغر الميامين . وارحم اللهم مشايخنا ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين .

اللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك . ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله . . . نشكرك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك .

اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد . نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

• • •

النفحة الأولى

نعم الله على عبـــاده

تدور مواعظها حول صيانة نعم الله ، ووجوب شكر المنعم ، وعدم نسيان ما لله تعالى على المرء من نعم لا تحصى ، وآلاء لا تستقصى . . . وعدم نسيان ما كان الإنسان فيه من شقاء بدله الله إلى رخاء ، ومن بؤس بدله الله إلى رفاهية ، ومن ضنك حوله الله إلى فرج ، ومن ضيق صيره الله إلى سعة ، ومن عسر صار يسراً ، ومن شدة أوجد الله لها مخرجاً . . . وكأنى بقول أحد الحكماء :

إذا كنت فى نعمة : فارعهـا فإن المعاصى : تزيل النعـم

وداوم عليهـا بشـكر الإلـــه فإن الإلـــه سريـع النقـم ! !

وإليك ما نطق به « الفم » الشريف : « فم » رسول الله صلى الله عليه وسلم :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن ثلاثة فى بنى إسرائيل : أبرص ، وأقرع ، وأعمى . . . فأراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : لون حسن ، وجلد حسن . ويذهب عنى الذى قد قذرنى الناس . .

فسحه ، فذهب عنه قذره ، وأعطى لوناً حسناً ، وجلداً حسناً ... قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل — أو قال : البقر . . .

(شك إسحاق فى الأبرص ، والأقرع ، قال أحدهما : الإبل ، وقال الآخر : البقر . .) قال : فأعطى ناقة عشراء ، فقال : بارك الله لك فيها .

قال : فأتى الأقرع فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عنى هذا الذى قد قذرنى الناس ... قال : فمسحه ، فذهب عنه ، وأعطانى شعراً حسناً .

قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ، فأعطى بقرة حاملا فقال : بارك الله لك فيها .

قال : فأتى الأعمى ، فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى فأبصر به الناس .. قال: فمسحه ، فرد الله إليه بصره ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطى شاة ولوداً ، فأنتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .

قال : ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الجبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ... أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن ، والمال ، بعيراً أتبلغ عليه فى سفرى ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال له : كأنى

أعرفك . . ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، فقال : إن كنت كاذباً : فصيرك الله إلى ما كنت ...

قال وأتى الأقرع فى صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا ، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

قال : وأتى الأعمى فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين وابن سبيل ، انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك : شاة أتبلغ بها فى سفرى ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، فخذ ما شئت ، ودع ما شئت ... فوالله لا أجهدك اليوم شيئاً أخذته لله .

فقال أمسك عليك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضى عنك ، وسخط على صاحبيك ! ! (رواه مسلم والبخارى)

النفحة الثانية

الذين تكلموا فى المهد

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى . .

وكان فى بنى إسرائيل رجل يقال له « جريج »، كان يصلى فجاءته أمه ، فدعته ، فقال : أجيبها ، أو أصلى ؟ فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات !

وكان « جريج » فى صومعته ، فتعرضت له امرأة فكلمته ، فأبى ، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها، فولدت غلاماً ، فقالت : من « جريج » ، فأتوه ، فكسروا صومعته ، وأنزلوه ، وسبوه . . . فتوضأ، وصلى، ثم أتى الغلام، فقال : من أبوك يا غلام ؟ فقال : الراعى، فقالوا : أنبنى لك صومعتك من ذهب ؟ قال : لا . . . إلا من طين .

وكانت امرأة ترضع ابنها من بنى إسرائيل، فمر بها رجل راكب ذو شارة، فقالت : اللهم اجعل ابنى مثله ، فترك ثديها ، وأقبل على الراكب وقال : اللهم لا تجعلنى مثله . ثم أقبل على ثديها يمصه .

قال أبو هريرة : كأنى أنظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم يمص إصبعه .

ثم مر بأمه فقالت : اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه ، فترك ثديها ، فقال : اللهم اجعلنى مثلها . . فقالت له : لم ذاك ؟ فقال : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون لها : سرقت . . زنيت . . ولم تفعل » .

(رواه البخارى وأحمد)

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

لم يتكلم فى المهد إلا عيسى ، وشاهد يوسف ، وصاحب « جريج » ، وابن ماشطة فرعون » .

(رواه الحاكم بسند صحيح)

فانظر إلى آثار رحمة الله ، وكيف نطق المسيح وهو فى المهد دفاعاً عن أمه البتول الطاهرة . . . « فأشارت إليه : قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ؟ قال : إنى عبد الله ، آتانى الكتاب ، وجعلنى نبياً ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جباراً شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ، ذلك عيسى بن مريم ، قول الحق الذى فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد . . . سبحانه ! إذا قضى أمراً ، فإنما يقول له كن فيكون » .

ولكن تأتى الحكمة البالغة فى أن ينطق المسيح وهو فى المهد ، وأن القضية تتعلق بالعِرْض — بكسر العين وسكون الراء — فقد قال اليهود على مريم بهتانا عظيما وقالوا : (يامريم لقد جئت شيئاً فريا ٥ يا أخت هارون : ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا) .

أصون عرضى بمالى لا أبدده
لا بارك الله بعد العرض فى المال

فلما كانت القضية قضية العِرْض : أنطق الله لمريم ابنها المسيح ، وهو فى المهد ليبرىء أمام اليهود ساحتها ، ويعلن أمام العالمين طهارتها ، وبراءتها .

كذلك شاهد « جريج » : لما رماه قومه من اليهود بطعنة تتعلق بالعرض ، وأنه أتى امرأة بغيا ، وجاء منها بطفل ؛ وعلم الله أن هذا العابد الطاهر براء مما قالوه : أنطق الله طفلا ما زال فى المهد ، وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ، ليبرىء ساحة العابد .

فانظر إلى آثار رحمة الله ، ولطف بره . . .

كيف يتدارك بفضله عباده المؤمنين ، إذا ادلهمت الخطوب ، وتلبدت السماء بالغيوم ، وغلت مراجل الغيظ !!

إن يد الله تعمل فى الخفاء ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها ! !

ألم تقرأ قول الله تعالى : (لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً)؟!

وقوله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ... ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً) ؟

وقوله جل شأنه : (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً) ؟

وقوله تعالى : (سيجعل الله بعد عسر يسراً) ؟

وقوله تبارك اسمه : (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ... قد أحسن الله له رزقاً) ؟

وإن فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبعث فى القلب الطمأنينة إلى أن نية المرء إذا كانت خيراً : تحرك العوالم ، وتسير الجبال

استمع معى إلى ما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه حيث يقول :

« إن رجلا من بنى إسرائيل سأل رجلا أن يسلفه ألف دينار ، فدفعها إليه ... فلما حل أجلها : خرج فى البحر ، فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة ، فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار ، فرمى بها فى البحر . فخرج الرجل الذى كان أسلفه ، فإذا بالخشبة ، فأخذها لأهله حطباً ، فلما نشرها : وجد المال فيها !

فانظر : كيف أدى الله الدين عن صاحبه وأوصله إلى صاحب المال بين معترك الأمواج ؟ !

ألست معى فى أن :

تقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقى مزيد ؟!

النفحة الثالثة

الشيطان وجنوده

(شياطين الانس والجن وجنودهما ــ اعاذنا الله منهم ومن شرهم) :

قال الله تعالى : « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون » .

وقال جل شأنه : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ، فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم » .

وقال تبارك اسمه : « إن الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

اعلم وفقنى الله وإياك أن للشيطان همزات ونزعات ، وهذه تأتى الإنسان فى جميع أحواله ، حتى وهو يصلى . . . وهذا دليل تسلطه على ابن آدم .

ولقد حذرنا الله تبارك وتعالى من اتباعه والسير وراء همزاته ونزواته ونمزاته ... قال سبحانه : (ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) .

وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص علينا حادثة وقعت له مع عفريت من الجن :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن عفريتاً من الجن تصلت البارحة ليقطع على صلاتى ، فأمكننى الله منه ، فأخذته ، فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد ، حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان : رب هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ، فرددته خاسئاً » ... (رواه الشيخان).

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ، ولكن : فى التحريش بينهم » .

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه ... فأدناهم منه منزلة : أعظمهم فتنة ... يجىء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول : ما صنعت شيئاً ... ثم يجىء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، قال : فيدنيه منه ويقول : نعم ... أنت » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : خرج النبى صلى الله عليه وسلم من عندى ليلا ، فغرت عليه ، فجاء ، فرأى ما أصنع ، : فقال : مالك يا عائشة ؟ أغرت ؟ قلت : ومالى لا يغار مثلى على مثلك ؟ فقال : أقد جاءك شيطانك ؟ قالت يا رسول الله : أو معى شيطان ؟ قال : نعم ، قلت : ومع كل إنسان ؟ قال : نعم ، قلت : ومعك يارسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن ربى أعاننى عليه حتى أسلم » .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« ما منكم من أحد إلا وقد وكل الله به قرينه من الجن ، قالوا : وإياك يارسول الله ؟ قال : وإياى ، إلا أن الله أعاننى عليه ، فأسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير » .

روى هذه الأربعة مسلم فى (صفة القيامة) .

* * *

تعليق للمرحوم الشيخ منصور على ناصف :

يقول المرحوم الشيخ منصور على ناصف فى كتابه (التاج : الجامع للأصول ، فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم) :

اتضح مما تقدم أن الشيطان يتسلط على ابن آدم بالإغواء ، وهذا باتفاق ، وهل يتسلط عليه بالإضرار أيضاً ؟ قال المعتزلة : ليس له ذلك ، لقوله تعالى : (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) .

وقال أهل السنة : إنه قد يتسلط بالهلاك والإضرار فى جسمه وعقله ... وهذا ثابت بالكتاب والسنة والواقع والمشاهد :

أما الكتاب : فقوله تعالى : (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) ... وقوله تعالى : (من

شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس) .

وأما السنة : فمنها قوله صلى الله عليه وسلم : « فناء أمتى بالطعن والطاعون ، ووخز أعدائكم من الجن ، وفى كل : شهادة » . (رواه أحمد والطبرانى)

أى من أسباب هلاكها : الطعن بالحراب ، ونحوها فى الجهاد ، ونحوه . والطاعون : الذى هو ضرب الجن لبعض الناس ... والميت بأحدهما شهيد .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه عليهما السلام » .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم » .

ومنها ما رواه الإمام أحمد عن أم أبان بنت الوازع عن أبيها عن جدها ، قالت :

انطلق جدى إلى النبى صلى الله عليه وسلم بابن له — أو ابن أخت له — فقال يا رسول الله إن هذا مجنون ، أتيتك به لتدعو له ... قال صلى الله عليه وسلم : قربه منى ، واجعل ظهره لى . . . قال : ففعل ، فأخذ

النبي صلى الله عليه وسلم بمجامع ثوبه من أعلاه وأسفله ، فجعل يضرب ظهره ويقول : أخرج عدو الله ... فصار المريض ينظر نظره الصحيح ، لا نظره الأول . . . ثم حول وجهه نحوه ، ودعا بماء ، فمسح به وجهه ، ودعا له » .

قال جدى : فلم يكن فى الوفد بعد هذا أفضل ولا أحسن منه .

وللإمام أحمد أيضاً ، عن يعلى بن مرة ، قال : خرجت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فلما كنا ببعض الطريق مرونا بامرأة ومعها صبى لها ، فقالت يا رسول الله : هذا صبى أصابه بلاء وأصابنا منه بلاء ، فإنه يصرع فى اليوم أكثر من مرة ، قال ناوليني . . فأعطته له ، ففتح فمه ، فنفث فيه ثلاثاً ، وقال : (باسم الله أنا عبد الله ... اخسأ عدو الله) .

وفى بعض الروايات : (أخرج عدو الله ، أنا رسول الله) .

ثم أعطاه للمرأة وقال : تنتظرينا هنـا ونحن راجعون فتخبرينا بما فعـل . . .

قال يعلى : فذهبنا ، ثم عدنا إلى هذا المكان ، فوجدناها ومعهـا ثلاث شياه ... فقال صلى الله عليه وسلم : ما فعل صبيك ؟ قالت : والذى بعثك بالحق ما رأينا منه شيئاً إلى هذه الساعة ، وخذ منى هـذه الشياه ، فقال صلى الله عليه وسلم : (انزل فخذ منها واحدة ورد لها البقيـة) .

أنــواع الصَّـرَع

قال العلامة ابن القيم فى (زاد المعاد) :

الصرع : نوعان : نوع من الأرواح الخبيثة الأرضية ، ونوع من الأخلاط الرديئة – أى من المرض أو الحزن الذى أثر فى القوة المفكرة .. وهذا ما يتكلم الأطباء فى سببه وعلاجه .

وأما الأول : فسببه غالبا : خراب الباطن من نور الإيمان والأذكار والتعوذات النبوية ، فتجد الروح الخبيثة ، ذلك البدن أعزل لا سلاح معه ، وربما كان عرياناً فتحل فيه ، فتؤذيه ... ومع هذا فالمنظور من الخبيث : فعل الشر مع كل مخلوق أينما حـــل ... كالحية والعقرب يلدغان من غير سبب .

نسأل الله السلامة . . . آمين .

وأما علاجه : فيكون بمقابلة الأرواح الشريفة العلوية الخيرة لتلك الأرواح الخبيثة ، فتدافع آثارها وتعارضها فتبطلها .. وعلى المريض أن يلجأ إلى ربه ، ويكثر من التعوذ بصيغة من التعوذات ، وأن يكثر من قوله : (رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون) .

وأما المعالج : فإنه يجب أن يكون قوى الإيمان ، حسن التوكل على الله تعالى ، ويسلك فى طريق محاربته ما يراه قاهراً له ... فربما طرد المارد

بمجرد الأمر — كما حصل من النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « أخرج يا عدو الله » ... وكما وقع من الإمام أحمد :

لقد كان جالساً في مسجده : إذ جاءه صاحب له من قبل الخليفة المتوكل فقال : إن في بيت أمير المؤمنين جارية بها صرع ، وقد أرسلني إليك لتدعو الله لها بالعافية . . .

فأعطاه الإمام أحمد نعلين من خشب ، وقال : اذهب إلى دار أمير المؤمنين واجلس عند رأسها ، وقل للجني .

يقول لك أحمد : أيهما أحب إليك : تخرج من هذه الجارية أو تصفع بهذه النعل سبعين ؟

فذهب الرجل ومعه (النعل) إلى الجارية ، وجلس عند رأسها ، وقال كما قال له الإمام أحمد ، فقال المارد على لسان الجارية : السمع والطاعة لأحمد .. لو أمرنا أن نخرج من العراق ، لخرجنا منه ... إنه أطاع الله . . . ومن أطاع الله : أطاعه كل شيء ...

ثم خرج من الجارية ... فهدأت ورزقت أولاداً ! !

فلما مات الإمام أحمد ، عاد لها المارد ، فاستدعى لها الأمير : صاحباً من أصحاب الإمام أحمد ، فحضر ، ومعه ذلك النعل ، وقال للمارد : أخرج وإلا ضربتك بهذه النعل .

فقال المارد لا أطيعك ، ولا أخرج ... أما أحمد بن حنبل : فإنه أطاع الله ، فأمرنا بطاعته ! !

وكان بعض خيار العلماء — رضى الله عنهم — يعالج بآية الكرسى والمعوذتين وآية : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) وبعضهم كان يعالج بالبسملة ، والفاتحة . .

النفحة الرابعة

حول الملائكة الكرام

قال الله تعالى : (وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هي إلا ذكرى للبشر) .

وقال تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .. فيجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ربهم — وهو أعلم بهم — كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » . (رواه الشيخان والنسائي)

وفي هذا المعنى :

عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش : إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » .

(رواه أبو داود والضياء والبيهقي)

يقول المرحوم الشيخ منصور علي ناصف في كتابه « التاج الجامع للأصول » في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم :

الملائكة أجسام نورانية ، لطيفة صمدانية ، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناكحون ، ولا يتناسلون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وليسوا بمكلفين بشيء ، ولكنهم جبلوا على عبادة الله سبحانه وتعالى :

مسكنهم السماوات العلا ، ولا ينزل منهم إلى الأرض إلا من أمر بالنزول — كالحفظة ، والكتبة ، وملائكة التصريف .

والملائكة والجن : فيهم قدرة على التشكل كما يشاءون ، إلا أن الفرق بينهما ، أن الملك لا يتشكل إلا بالأشكال الشريفة — كالإنسان — ولا تحكم عليه الصورة لو قتلت ... بخلاف الجني فيهما .

النفحة الخامسة

الأخذ بمكارم الأخلاق

الاستئذان :

قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها .. ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها ، حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا : فارجعوا .. هو أزكى لكم . والله بما تعملون عليم) .
(صدق الله العظيم)

عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : كنت جالساً فى مجلس من مجالس الأنصار ، فأتانا أبو موسى فزعا ... قلنا : ما شأنك ؟ .

قال : إن عمر أرسل إلى أن آتيه ، فأتيت بابه ، فسلمت ثلاثاً ، فلم يرد على أحد ، فرجعت ... ثم أرسل إلى ، فذهبت ... فقال : ما منعك أن تأتينا ؟ قلت : إنى أتيت فسلمت على بابك ثلاثاً، فلم يردوا على ... فرجعت ... وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع .. فقال عمر : أقم عليه البينة وإلا أوجعتك .. فقال أبى بن كعب : لا يقوم معه إلا أصغر القوم ...

قال أبو سعيد : قلت أنا الأصغر ... قال : فاذهب به . فقمت ، فأتيت عمر ، فقلت : قد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول هذا ...

وفي رواية : فجاءه أبي ، فشهد بذلك وقال : يا ابن الخطاب : لا تكونن عذاباً على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ... قال : سبحان الله ! إنما سمعت شيئاً فأحب أن أتثبت . (رواه الأربعة)

واستأذن رجل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في بيت ، فقال : أألج ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه : أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان ... فقال له : قل : السلام عليكم ... أأدخل ؟ فسمعه الرجل ، فقال : السلام عليكم ... أأدخل ؟ فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم فدخل . (رواه أصحاب السنن)

وقال عمر : استأذنت على النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ، فأذن لي .

وعن جابر رضي الله عنه ، قال : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في دين كان على أبي ، فدققت الباب ، فقال : من ذا ؟ فقلت : أنا ؟ فقال : أنا أنا ؟ ! . . . كأنه كرهها » . (رواه الخمسة)

وجاء رجل يستأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام على الباب مستقبل الباب ، فخرج له النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هكذا عنك وهكذا . . . فإنما الاستئذان من النظر ! !

عن عبد الله بن بشر رضى الله عنه قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن ، أو الأيسر » .

(رواهما أبو داود)

* * *

الإذن لمنع النظر :

عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رجلا اطلع من حجر فى باب النبى صلى الله عليه وسلم ، ومع النبى صلى الله عليه وسلم مدرى يرجل به رأسه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أعلم أنك تنظر لطعنت به فى عينيك . . . إنما جعل الله الإذن من أجل البصر » .

وفى رواية : فقام إليه النبى صلى الله عليه وسلم بمشقص[1] ، فكأنى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يختله ليطعنه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « رسول الرجل إلى الرجل : إذنه » .

(رواه أبو داود والبخارى)

وعن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال : نزلنا مع النبى صلى الله

---

(١) آلة : حادة كالمقص وخلافه .

عليه وسلم بخيبر — وكان صاحب خيبر رجلا مارداً منكراً — فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد، ألكم أن تذبحوا حمرنا ! وتأكلوا ثمرنا ، وتضربوا نساءنا ! ؟ .

فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا ابن عوف : اركب فرسك، ثم ناد : ألا إن الجنة لاتحل إلا لمؤمن، وأن اجتمعوا للصلاة .

فاجتمعوا ، وصلى بهم النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قام ، فقال : أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته ،فقد يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا ماف هذا القرآن . . . ألا وإنى — والله — قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن ، أو أكثر ، وإن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ، ولا ضرب نسائهم ، ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذى عليهم » . يعنى الجزية .

(رواه أبو داود فى « الجزية »)

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذنك علىّ أن يرفع الحجاب ، وأن تستمع سوادى حتى أنهاك) . (رواه مسلم)

• • •

هدر دم الناظر بغير إذن :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم : فقد حل لهم أن يفقأوا عينه » .

(رواه مسلم وأبو داود)

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن رجلا اطلع عليك بغير إذن ، فحذفته بحصاة ، ففقأت عينه : ما كان عليك من جناح » .

(رواه مسلم وأحمد)

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كشف ستراً فأدخل بصره في البيت قبل أن يؤذن له ، فرأى عورة أهله : فقد أتى حداً لايحل له أن يأتيه. . . لو أنه حين أدخل بصره ، استقبله رجل ففقأ عينه ، ما غيرت عليه ، وإن مرّ الرجل على باب لا ستر له غير مغلق فنظر ، فلا خطيئة عليه ... إنما الخطيئة على أهل البيت » . (رواه الترمذي)

فضيلة الصبر

وهل يمكن الحياة بغير صبر ؟

إن الصبر هو الذى يمدنا بالطاقة التى بها نستطيع أن ننفذ أوامر الله ونجتنب نواهيه . . .

قما أجمل مانطق به القرآن الكريم فى قوله تعالى : (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه . إنه ليؤوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى ... إنه لفرح فخور ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) .

فأنت ترى أن الاستثناء هنا من الجزع والهلع والقلق وعدم الرضا بما قضى ، جاء الاستثناء للصابرين :

فهم الذين يثبتون فى الشدائد ، ويرضون بمر القضاء ، مهما أدلهمت الخطوب واحتدمت .

• • •

وفى كتاب إحياء علوم الدين ، للإمام الغزالى « الجزء الرابع » كتب حجة الإسلام فى هذا الباب : جواهر غاليات ، ودررا ساطعات ... آثرنا أن نسجلها كما جاءت ، لتكون للمسلمين تذكرة ، وتعيها أذن واعية .

قال رحمه الله تعالى :

إن الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر . . كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار .

وهما أيضاً وصفان من أوصاف الله تعالى ، واسمان من أسمائه الحسنى .. إذ سمى نفسه : « صبوراً » و « شكوراً » .

فالجهل بحقيقة الصبر والشكر : جهل بكلا شطرى الإيمان ... ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ، ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان .

وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان، ومن به الإيمان ؟

والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر : تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك ما به الإيمان . .

فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان .

* * *

الشطر الأول : فى الصبر :

وفيه بيان فضيلة الصبر ، وبيان حده وحقيقته ، وبيان كونه نصف الإيمان ، وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته ، وبيان أقسامه بحسب

اختلاف القوة والضعف ، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر ، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه . . . فهى سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى .

بيان فضيلة الصبر :

وقد وصف الله تعالى : الصابرين بأوصاف ، وذكر الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعاً ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له ... فقال عز من قائل (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » ... وقال تعالى : (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) . وقال تعالى : (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال تعالى: (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) وقال تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) .

فما من قربة إلا وأجراها بتقدير وحساب ، إلا الصبر ... ولأجل كون الصوم من الصبر ، وأنه نصف الصبر ، فقد قال الله تعالى : (الصوم لى ، وأنا أجزى به) .

فأضاف الصبر إلى نفسه من بين سائر العبادات ، وعد الصابرين بأنه معهم . . . فقال تعالى: (واصبروا ، إن الله مع الصابرين) .

وعلق النصرة على الصبر ، فقال تعالى : (بلى إن تصبروا ، وتتقوا ، ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) .

وجمع للصابرين بين أمور لم يجعلها لغيرهم... فقال تعالى : (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون) .

فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين .

واستقصاء جميع الآيات فى مقام الصبر يطول .

• • •

وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم : « الصبر نصف الإيمان » وقال صلى الله عليه وسلم : « من أقل ما أوتيتم : اليقين ، وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما : لم يبال بمافاته ... من قيام الليل ، وصيام النهار . . . ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافينى كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم . . أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى ، فينكر بعضكم بعضاً ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ... فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ... ثم قرأ قوله تعالى : (ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق ، ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) .

وروى جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : « الصبر والسماحة » وقال أيضاً : « الصبر كنز من كنوز الجنة » .

وسئل صلى الله عليه وسلم : ما الإيمان ؟ فقال : الصبر !

وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم: « الحج : عرفة » معناه ، معظم الحج : عرفة .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : تخلق بأخلاق ، وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور » .

وفى حديث عطاء عن ابن عباس ، لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال : أمؤمنون أنتم ؟ فسكتوا ... فقال عمر : نعم يارسول الله .

قال وماعلامة إيمانكم ؟ قالوا : نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء . . فقال صلى الله عليه وسلم : مؤمنون ورب الكعبة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « فى الصبر على ما تكره خير كثير » .

وقال المسيح عليه السلام : « إنكم لاتدركون ماتحبون إلا بصبركم على ما تكرهون » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان الصبر رجلا : لكان كريماً ، والله يحب الصابرين » .

والأخبار فى هذا لا تحصى .

وأما الآثار :

فقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر : الصبر فى المصيبات : حسن ، وأفضل منه : الصبر عما حرم الله تعالى :

واعلم أن الصبر ملاك الإيمان ، وذلك بأن التقوى أفضل البر ، والتقوى بالصبر .

وقال على كرم الله وجهه : بنى الإيمان على أربع دعائم : اليقين ، والصبر ، والجهاد ، والعدل .

وقال أيضاً : الصبر من الإيمان : بمنزلة الرأس من الجسد ، ولاجسد لمن لا رأس له ، ولا إيمان لمن لا صبر له .

وكان عمر رضى الله عنه يقول :

نعم العدلان ، ونعمت العلاوة للصابرين — يعنى بالعدلين : الصلوات والرحمة . . . وبالعلاوة : الهدى .

والعلادة مايحمل فوق العدلين على البعير . وأشار به إلى قوله تعالى : (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون) .

وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه الآية : (إنا وجدناه صابراً... نعم العبد . . . إنه أواب) بكى ، وقال : واعجباه ! ! أعطى . وأثنى... أى هو المعطى للصبر ، وهو المثنى ! !

وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان: الصبر للحكم ، والرضا بالقدر .

بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ، ومنزل من منازل السالكين .

وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور :
معارف ، وأحوال ، وأعمال :

فالمعارف : هى الأصول ، هى تورث الأحوال ، والأحوال تثمر الأعمال . . .

فالمعـــارف : كالأشجار . . .

والأحوال : كالأغصان . . .

والأعمـــال : كالثمـــار . . .

وهذا مطرد فى جميع منازل السالكين إلى الله تعالى .

واسم الإيمـــان : تارة يختص بالمعارف ، وتارة يطلق على الكل.

وكذلك الصبر : لا يتم إلا بمعرفة سابقة ، وبحالة قائمة . . .

فالصبر على التحقيق : عبارة عنها ... والعمل : هو كالثمرة ، يصدر عنها . ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم ... فإن الصبر خاصية الإنس ، ولا يتصور ذلك فى البهائم والملائكة ... أما فى البهائم فلنقصانها ... وأما فى الملائكة : فلكمالها .

وبيانه : أن البهائم سلطت عليها الشهوات ، وصارت مسخرة لها ، فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا بالشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها على مقتضاها ، حتى يسمى ثبات تلك القوة فى مقابلة مقتضى الشهوة : صبراً .

وأما الملائكة عليهم السلام : فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية ، والابتهاج بدرجة القرب منها ، ولم تسلط عليهم شهوة صارمة صادرة عنها ، حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف .

وأما الإنسان : فإنه خلق فى ابتداء الصبا ناقصاً ، مثل البهيمة ، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح . . على الترتيب . . وليس له قوة الصبر (البتة).

إذن ، الصبر : عبارة عن ثبات جند فى مقابلة جند آخر ، قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما .

وليس فى الصبر إلا جند الهوى ، كما فى البهائم ، ولكن الله تعالى — بفضله وسعة جوده — أكرم بنى آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم . . . فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ — ملكين :

أحدهما : يهديه . . والآخر : يغويه .

فتميز بمعرفة الملكين عن البهائم . .

واختص بصفتين : إحداهما معرفة الله تعالى ، ومعرفة رسوله ، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب . . وكل ذلك حاصل من الملك الذى إليه الهداية والتصريف . . .

فالبهيمة لامعرفة لها ، ولاهداية إلى مصلحة العواقب . . . بل إلى مقتضى شهواتها فى الحال فقط . . . فلذلك لاتطلب إلا اللذيذ .

وأما الدواء النافع — مع كونه مضراً فى الحال — فلا تطلبه ولاتعرفه . فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة فى العاقبة ، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ، مالم تكن له قدرة على ترك ماهو مضر ... فكم من مضر يعرفه الإنسان — كالمرض النازل به مثلا — ولكن لا قدرة له على دفعه ... فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها فى نحر الشهوات ، فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه ... فوكل الله تعالى به ملكاً آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها ... وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة ... فتارة يضعف هذا الجند ، وتارة يقوى .

وذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد .

كما أن نور الهداية أيضاً يختلف فى الخلق اختلافاً لاينحصر .

فلنسم هذه الصفة التى بها فارق الإنسان البهائم فى قمع الشهوات وقهرها : باعثاً دينياً . . .

ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها : باعث الهوى . . .

وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين ، وباعث الهوى . . . والحرب بينهما سجال . . .

ومعركة هذا القتال : قلب العبد ، ومدد باعث الدين : من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى . . . ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى . . .

فالصبر : عبارة عن ثبات باعث الدين ، فى مقابلة باعث الشهوة ...

فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة : فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين . . .

وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق باتباع الشياطين . .

فإذن :

ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال تسمى الصبر . . . وهو ثبات باعث الدين ، الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة .

وثبات باعث الدين : حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات فى الدنيا والآخرة ...

فإذا قوى يقينه — أعنى المعرفة التى تسمى إيماناً ، وهو اليقين بكون الشهوة عدواً قاطعاً لطريق الله تعالى — قوى ثبات باعث الدين ...

وإذا قوى ثباته : تمت الأفعال ، على خلاف ما تتقاضاه الشهوة ، فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة

وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها

وهذان الملكان : هما المتكلفان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما ، وهما من الكرام الكاتبين ، وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين .

وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك المقوى ، لم يخف عليك أن جانب اليمين هو أشرف الجانبين من جنبتى الدست . . . ينبغى أن يكون مسلماً له .

فهو إذن : صاحب اليمين ، والآخر : صاحب الشمال .

وللعبد طوران : فى الغفلة والفكر ، وفى الاسترسال والمجاهدة . . .

فهو بالغفلة : معرض عن صاحب اليمين ومسىء إليه ، فيكتب إعراضه سيئة ، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية . . . فهو به محسن ، فيكتب إقباله له حسنه .

وكذا بالاسترسال : هو معرض عن صاحب اليسار ، تارك للاستمداد منه . . . فهو به مسىء إليه ، فيثبت عليه سيئة ... وبالمجاهدة مستمد من جنوده ، فيثبت له به حسنه .

وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما .

فلذلك سميا : كراماً كاتبين .

أما الكرام : فلانتفاع العبد بكرمهما ، ولأن الملائكة كلهم كرام بررة . . .

وأما الكاتبون : فلائباتهما الحسنات والسيئات . . .

وإنما يكتبان فى صحائف مطوية فى سر القلب ، ومطوية عن سر القلب ، حتى لايطلع عليه فى هذا العالم ... فإنهما ، وكتبتهما ، وخطهما ، وصحائفهما ، وجملة ما تعلق بهما ، من جملة عالم الغيب والملكوت ، لامن عالم الشهادة .

وكل شيء من عالم الملكوت ، لا تدركه الأبصار فى هذا العالم .

ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه ، مرتين : مرة فى القيامة الصغرى ، ومرة فى القيامة الكبرى .

وأعنى بالقيامة الصغرى : حالة الموت... إذ قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : « من مات : فقد قامت قيامته » .

وفى هذه القيامة ، يكون العبد : وحده ، وعندها يقال : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) وفيها يقال : (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) .

أما فى القيامة الكبرى ، الجامعة لكافة الخلائق ، فلا يكون وحده ، بل ربما يحاسب على ملإ من الخلق . . . وفيها يساق المتقون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمرا . . . لا آحاداً ! !

أهوال يوم القيامة

الصغرى منهـا .. والكبرى

الهول الأول : هو هول القيامة الصغرى . . ولجميع أهوال القيامة الكبرى ، نظير فى القيامة الصغرى ، مثل زلزلة الأرض — مثلا — فإن أرضك الخاصة بك تزلزل فى الموت . . .

فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال : قد زلزلت أرضهم ، وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها .

بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة فى حقه ، لأنه يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه ، لا بزلزلة مسكن غيره ... فمصيبته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان !

واعلم أنك أرضىّ مخلوق من التراب ، وحظك الخاص من التراب بدنك فقط .

فأما بدن غيرك فليس بحظك ، والأرض التى أنت جالس عليها — بالإضافة إلى بدنك — ظرف مكان .

وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه ، وإلا فالهواء أبداً يتزلزل وأنت لاتخشاه ، إذ ليس يتزلزل به بدنك . . .

فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط ، فهى أرضك وترابك الخاص بك . . وعظامك : جبال أرضك . . ورأسك : سماء أرضك .. وقلبك : شمس أرضك .. وسمعك وبصرك وسائر خواصك : نجوم سمائك . . ومفيض العرق من بدنك : بحر أرضك . . وشعرك : نبات أرضك . . وأطرافك : أشجار أرضك . .

فإذا انهدم بالموت أركان بدنك: فقد زلزلت الأرض زلزالها ! ! فإذا انفصلت العظام من اللحوم : فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة !

فإذا رمت العظام : فقد نسفت الجبال نسفاً ...

فإذا أظلم قلبك عند الموت : فقد كورت الأرض تكويراً ...

فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك : فقد انكدرت النجوم انكداراً . . .

فإذا انشق دماغك : فقد انشقت السماء انشقاقاً . . .

فإذا انفجرت من هول الموت فرق جبينك : فقد فجرت البحار تفجيراً . . .

فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى — وهما مطيتاك — فقد عطلت العشار تعطيلا . . .

فإذا فارقت الروح الجسد : فقدحملت الأرض ومدت ، حتى ألقت مافيها وتخلت . . .

• • •

ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ، ولكنى أقول : بمجرد الموت ، تقوم عليك هذه القيامة الصغرى . . .

ولايفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك ، بل مايخص غيرك.

فإن بقاء الكواكب فى حق غيرك ، ماذا ينفعك ؟ وقد انتثرت حواسك التى بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب ؟ . .

والأعمى يستوى عنده الليل بالنهار ، وكسوف الشمس وانجلاؤها... لأنها قد كسفت فى حقه دفعة واحدة ، وهو حصته منها . . .

فالانجلاء بعد ذلك : حصة غيره .

ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه ... إذ السماء عبارة عما يلى جبهة الرأس ... فمن لا رأس له لا سماء له ...

فمن أين ينفعه بقاء السماء بغيره ؟

فهذه هى القيامة الصغرى ! !

والخوف بعد أسفل ، والهول بعد مؤخر .

وذلك : إذا جاءت الطامة الكبرى ، وارتفع بالخصوص ، وبطلت السماوات والأرض ، ونسفت الجبال ونمت والأهوال ! !

• • •

واعلم أن هذه القيامة الصغرى — وإن طولنا فى وصفها — فإنا لم نذكر عشر عشير أوصافها ... وهى بالنسبة إلى القيامة الكبرى : كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى . . .

فإن للانسان ولادتين : إحداهما الخروج من الصلب والترائب ، إلى مستودع الأرحام ... فهو فى الرحم فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم . . .

وله فى سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار : من نطفة ، وعلقة ، ومضغة ، وغيرها ... إلى أن يخرج من مضيق الرحم ، إلى فضاء العالم ...

فنسبة عموم « القيامة الكبرى » إلى خصوص « القيامة الصغرى » : كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ...

ونسبة سعة العالم الذى يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا : كنسبة فضاء الدنيا أيضاً إلى الرحم ... بل أوسع وأعظم ! !

فقس الآخرة بالأولى . . فـ (ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة) . وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى . . . بل أعداد النشآت ليست محصورة فى اثنتين . . .

وإليه الإشارة بقوله تعالى : (وننشئكم فيما لاتعلمون) ! !

فالمقر بالقيامتين : مؤمن بعالم الغيب والشهادة ، وموقن بالملك والملكوت . . .

والمقر بالقيامة الصغرى — دون الكبرى — ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين ... وذلك هو الجهل والضلال ، والاقتداء بالأعور الدجال . . !

• • •

فما أعظم غفلتك يا مسكين . . . وكلنا ذلك المسكين . . . وبين يديك هذه الأهوال ! !

فإن كنت تؤمن بالقيامة الكبرى — بالجهل والضلال — : أفلاتكفيك دلالة القيامة الصغرى ؟ ؟ !

أو ما سمعت قول سيد الأنبياء صلوات ربى وسلامه عليه : « كفى بالموت واعظاً » ؟ .

أو ماسمعت بكربه عليه السلام عند الموت ، حتى قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم هون على محمد سكرات الموت » ؟ ؟ ! !

أو ما تستحى من استبطائك هجوم الموت ... اقتداء برعاع الغافلين ، الذين لاينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ... فلايستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ؟ ؟ !

فيأتيهم المرض نذيراً من الموت : فلا ينزجرون ! ويأتيهم الشيب رسولا منه : فما يعتبرون ! ! !

فـ (ياحسرة على العباد ! ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) ! !

أفيظنون أنهم فى الدنيا خالدون ؟ ؟

(ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لايرجعون) ؟

أم يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم ، فهم معدومون ؟ ؟ !

كلا !

(إنْ كلٌّ لما جميع لدينا محضرون) . . . ولكن (ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) . . .

وذلك لأنا (جعلنا من بين أيديهم سداً ، ومن خلفهم سداً ، فأغشيناهم فهم لايبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم ، أم لم تنذرهم لايؤمنون) ! !

عود الى بدء

ولنرجع إلى الغرض ... فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هى أعلى من علوم المعاملة . . . فنقول :

قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى ، وهذه المقاومة من خاصة الآدميين ، لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ، ولا يكتبان شيئاً عن الصبيان والمجانين . . .

إذ قد ذكرنا أن الحسنة فى الإقبال على الاستفادة منهما ، والسيئة فى الإعراض عنهما .

وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة . . . فلا يتصور منهما إقبال وإعراض ، وهما لايكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض . . . .

ولعمرى ! أنه قد تظهر مبادىء إشراق نور الهداية عند سن التميز ، وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ ... كما يبدو نور الصبح إلى أنه مطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة ، بل إلى مضار الدنيا . . .

فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزاً ، ولايعاقب على تركها فى الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ماينشر فى الآخرة . . .

بل على القيم العدل ، والولى البر الشفيق — إن كان من الأبرار ، وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار — أن يكتب على الصبى سيئاته وحسناته على صحيفة قلبه . . .

فيكتبه عليه بالحفظ ، ثم ينشره عليه بالتعريف ، ثم يعذبه عليه بالضرب . . .

• • •

فكل ولى هذا سمته فى حق الصبى ، فقد ورث أخلاق الملائكة ، واستعملها فى حق الصبى . . فينال بها درجة القرب من رب العالمين ، كما نالته الملائكة ... ويكون مع النبيين والمقربين والصديقين . . .

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم : كهاتين فى الجنة » . . وأشار إلى أصبعيه الكريمتين .

صلى الله عليه وسلم .

الصَّبر نصف الإيمان

تارة يختص الإيمان فى إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين ، وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها ، وتارة يطلق عليهما جميعاً .

وللمعارف أبواب ، وللأعمال أبواب . . .

ولاشتمال لفظ « الإيمان » على جميعها ، كان الإيمان نيفاً وسبعين باباً . . .

ولكن . الصبر نصف الإيمان باعتبارين ، وعلى مقتضى إطلاقين :

أحدهما : أن يطلق على التصديقات الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين .

والمراد بالصبر : العمل بمقتضى اليقين — إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر ... وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى والكسل، فيكون الصبر : نصف الإيمان ، بهذا الاعتبار . . .

ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال : « من أقل ما أوتيتم : اليقين وعزيمة الصبر » .

ثانى الإطلاقين : أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال ، لا على المعـارف . . .

وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفع فى الدنيا والآخرة ، أو يضر فيهما . . .

وله — بالإضافة إلى مايضره حال الصبر ، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر — فيكون الشكر أحد شطرى الإيمان بهذا الاعتبار ... كما أن اليقين أحد الشطرين ، بالاعتبار الأول .

وبهذا النظر ، قال ابن مسعود رضى الله عنه : « الإيمان نصفان : نصف : صبر ، ونصف : شكر » . . وقد يرفع أيضاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما كان الصبر صبراً عن باعث الهوى ثبات باعث الدين ، وكان باعث الهوى قسمين : باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب. فالشهوة : لطلب اللذيذ ، والغضب : للهرب من المؤلم . وكان الصوم : صبراً عن مقتضى الشهوة — فقط — وهى شهوة البطن والفرج ، دون مقتضى الغضب . . . قال صلى الله عليه وسلم — بهذا الاعتبار — : « الصوم : نصف الصبر » . . . لأن كمال الصبر بالصبر ، عن دواعى

الشهوة ودواعي الغضب جميعاً . . . فيكون الصوم بهذا الاعتبار : ربع الإيمان .

فهكذا : ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال، ونسبتها إلى الإيمان .

والأصل فيه : أن تعرف كثرة أبواب الإيمان . . . فإن اسم «الإيمان» يطلق على وجوه مختلفة .

المسميات التى تتجدد بالصبر
بالاضافة الى ما عقـد الصبر

الصبر ضربان :

أحدهما ضربٌ بدنى : كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ... وهو :

إما بالفعل : كتعاطى الأعمال الشاقة ، إما من العبادات أو من غيرها... وإما بالاحتمال : كالصبر على الضرب الشديد ، والمرض العظيم ، والجراحات الهائلة ... وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع ، ولكن المحمود التام : هو الضرب الآخر ، وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى .

ثم هذا الضربُ : إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج ، سمى « عفة » ، وإن كان على احتمال مكروه ، اختلفت تسميته عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر .

فإن كان فى مصيبة فاقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى : الجزع والهلع . . . وهو إطلاق داعى الهوى يسترسل فى رفع الصوت ، وضرب الخدود وشق الجيوب . . . وغيرها .

وإن كان فى احتمال الغنى : سمى ضبط النفس ... وتضاده حالة تسمى البطر . . .

وإن كان فى حرب ومقاتلة : سمى « شجاعة ، ويضاده : الجبن » .

وإن كان فى كظم الغيظ والغضب : سمى « حلماً » ويضاده : التذمر . . .

وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان وضجره : سمى « سعة الصدر » ويضاده : الضجر والتبرم وضيق الصدر .

وإن كان فى إخفاء كلام : سمى « كتمان السر » ، وسمى صاحبه : « كتوماً » .

وإن كان عن فضول العيش : سمى « زهداً » .

وأيضاً : الحرص ، وإن كان صبراً — على قدر يسير من الحظوظ — سمى قناعة ، ويضاده : « الشره » . . .

ما أكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر . . .

ولذلك لما سئل المصطفى صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان ، قال : « هو الصبر » . . لأنه أكثر أعماله ، وأعزها . . . كما قال : « الحج عرفة » .

وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك ، وسمى الكل صبراً ، فقال تعالى : (والصابرين فى البأساء : أى المصيبة — والضراء : أى الفقر — وحين البأس : أى المحاربة — أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون) .

• • •

فإذن : هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ... ومن يأخذ فى المعانى من الأسامى ، يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها ، من حيث الأسامى مختلفة ....

والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله يلحظ المعانى أولا ، فيطلع على حقائقها ، ثم يلاحظ الأسامى . . . فإنها وضعت دالة على المعانى .

فالمعـــانى : هى الأصول . . . والألفاظ : هى التوابع .

ومن يطلب الأصول من التوابع لابد وأن يزل . . .

وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى : (أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى ، أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم ! ؟) .

فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذ الانعكاسات .

أقسام الصبر
بحسب اختلاف القوة والضعف

إن باعث الدين – بالإضافة إلى باعث الهوى – له ثلاثة أحوال :

الحالة الأولى :

أن يقهر داعي الهوى . . فلا تبقى له قوة المنازعة ، ويتوصل إليه بدوام الصبر . . . وعن هذا يقال من (صبر ظفر)

والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون . . . فلا جرم ، هم الصديقون المقربون ، الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا ...

فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم ، واستووا على الصراط القويم ، واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين .. وإياهم ينادى المنادى : (يا أيتها النفس المطمئنة : ارجعي إلى ربك راضية مرضية) . . .

الحالة الثانية :

أن تغلب دواعي الهوى ، وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ، فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ، ولا يجاهد ، ليأسه من المجاهدة ...

وهؤلاء هم الغافلون ، وهم الأكثرون ، وهم الذين استرقتهم ، شهواتهم ، وغلبت عليهم شقوتهم : فحكموا أعداء الله فى قلوبهم التى هى سر من أسرار الله تعالى ، وأمر من أموره . . .

وإليهم الإشارة بقوله تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها . . . ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) .

وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فخسرت صفقتهم ، وقيل لمن قصد إرشادهم : (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ... ذلك مبلغهم من العلم) .

وهذه الحالة : علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأمانى ... وهو غاية الحمق ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « الكيس : من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت . . . والأحمق : من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى » .

وصاحب هذه الحالة : إذا وعظ ، قال : أنا مشتاق إلى التوبة ، ولكنها قد تعذرت علىّ ، فلست أطمع فيها ... أو لم يكن مشتاقا إلى التوبة ، ولكن قال : إن الله غفور رحيم كريم ... فلا حاجة به إلى توبتى . . .

وهذا المسكين قد صار عقله رقيقاً لشهوته ... فلا يستعمل عقله إلا فى استنباط دقائق الحيل ، التى بها يتوصل إلى قضاء شهوته ... فقد صار عقله فى يد شهواته : كمسلم أسير فى أيدى الكفار ... فهم يسخرونه فى رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها ...

ومحله عند الله تعالى : محل من يقهر مسلماً ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيرا عندهم ... لأنه — بفاحش جنايته — يشبه أنه سخر ما كان

حقه أن لا يسخر ، وسلط ما حقه أن لا يتسلط عليه ، وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطاً ، لما فيه من معرفة الله وباعث الدين .

وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطاً عليه ، لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين .

وحق المسلم على نفسه ، أوجب من حق غيره عليه ...

فهما سخر المعنى الشريف — الذى هو من حزب الله وجند الملائكة — للمعنى الخسيس — الذى هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى ، كان كمن أرقّ مسلماً لكافر ... بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه ، فأخذ أعز أولاده وسلمه إلى أبغض أعدائه !!

فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته ، واستجابته لنقمته ؟ !

لأن الهوى أبغض إله عبد فى الأرض عند الله تعالى .. والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض .

الحالة الثالثة :

أن تكون الحرب سجالا بين الجندين :

فتارة له اليد عليها ، وتارة لها عليه ... وهذا يعد مثله من المجاهدين ، لا من الظافرين . . .

وأهل هذه الحالة : هم الذين خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً ... عسى الله أن يتوب عليهم .

هذا باعتبار القوة والضعف . . .

ويتطرق إليه أيضاً ثلاثة أحوال ، باعتبار عدد ما يصبر عنه :

فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات ؟

أو لا يغلب شيئاً منها . . ؟

أو يغلب بعضها دون بعض ...

وتنزيل قوله تعالى : (خلطوا عملا صالحاً ، وآخر سيئاً) : على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض . والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام ... بل هم أضل سبيلا ... إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التى بها تجاهد مقتضى الشهوات ، وهذا قد خلق ذلك له وعطله . . .

فهو الناقص حقاً ، المدبر يقيناً ...

ولذلك قيل :

ولم أر فى عيــوب الناس عيباً كنقص القادرين عــلى التمــام

• • •

وينقسم الصبر أيضاً – باعتبار اليسر والعسر – إلى ما يشق عــلى النفس ... فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد ، وتعب شديد ...

ويسمى ذلك تصبراً ... وإلى ما يكون من غير شدة تعب ... بل يحصل بأدنى تحامل على النفس .

ويخص ذلك باسم الصبر . وإذا دامت التقوى ، وقوى التصديق — بما فى العاقبة من الحسنى — تيسر الصبر ...

ولذلك قال تعالى : (فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى) .

ومثال هذه القسمة : قدرة المصارع على غيره ...

فإن الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه فى مصارعته إعياء ولا لغوب ، ولا تضطرب فيه نفسه ، ولا ينبهر ، ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين ...

فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين ، وباعث الهوى ... فإنه — على التحقيق — صراع بين جنود الملائكة ، وجنود الشياطين ...

ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت ، وتسلط باعث الدين واستولى ، وتيسر الصبر بطول المواظبة ، أورث ذلك مقام الرضا .

فالرضا : أعلى من الصبر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ، ففى الصبر على ما تكره خير كثير » .

وقال بعض العارفين : أهل الصبر : على ثلاثة مقامات :

أولها : ترك الشهوة ... وهذه درجة التائبين .

وثانيها : الرضا بالمقدر ... وهذه درجة الزاهدين .

وثالثها : المحبة لما يصنع به مولاه ... وهذه درجة الصديقين .

* * *

واعلم أن الصبر أيضاً ينقسم — باعتبار حكمه — إلى فرض ، ونفل ، ومكروه ، ومحرم .

فالصبر : عن المحظورات : فرض ... وعلى المكاره : نفل ...

والصبر على الأذى المحظور : محظور ، كمن تقطع يده أو يد ولده ، وهو يصبر عليه ساكتاً ... وكمن يقصد جريمة بشهوة محظورة ، فتهيج غيرته ، فيصبر عن إظهار الغيرة ، ويسكت على ما يجرى على أهله ... فهذا الصبر محرم .

والصبر المكروه : هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع ... فليكن الشرع محك الصبر ...

* * *

فكون الصبر نصف الإيمان : لا ينبغى أن يخيل إليك أن جميعه محمود . . . بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

بيان مظان الحاجة الى الصبر
وأن العبد لا يستغنى عنه فى حال من الأحوال

جميع ما يلقى العبد فى هذه الحياة : لا يخلو من نوعين :

أحدهما : هو الذى يوافق هواه . . .

والآخر : هو الذى لا يوافقه ، بل يكرهه .. وهو مزاج إلى الصبر فى كل واحد منهما ، وهو فى جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين ، أو عن كليهما . .

فهو — إذن — لا يستغنى — قط — عن الصبر .

النوع الأول : ما يوافق الهوى ، وهو : الصحة ، والسلامة ، المال ، والجاه ، وكثرة العشيرة ، واتساع الأسباب ، وكثرة الأتباع والأنصار ، وجميع ملاذ الدنيا . .

وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور .. فإنه : إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك فى ملاذها المباحة منها ، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان . . فإن الإنسان ليطغى . . أن رآه استغنى ! !

حتى قال بعض العارفين : « البلاء » يصبرعليه المؤمن ، والعوافى : لا يصبر عليها إلا صديق » ! !

وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء !!

ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا : ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر !!

ولذلك : حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد .. فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) ..

وقال عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ... فاحذروهم) .

ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضى الله عنه ، يتعثر فى قميصه ، نزل عن المنبر واحتضنه ، ثم قال : « صدق الله ! إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ... إنى لما رأيت ابنى يتعثر لم أملك نفسى أن أخذته ! !

• • •

فى ذلك عبرة لأولى الأبصار .. فالرجل — كل الرجل — من يصبر على العافية . ومعنى الصبر عليها : ألا يركن إليها ، ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده ، وعسى أن يسترجع على القرب ، وألا يرسل نفسه فى الفرح بها ، ولا ينهمك فى التنعم واللذة واللهو واللعب ، وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالإنفاق ، وفى بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفى لسانه ببذل الصدق .. وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه ...

وهذا الصبر : متصل بالشكر ، فلايتم إلا بالقيام بحق الشكر .

وإنما كان الصبر على السراء ، أشد ، لأنه مقرون بالقدرة . ومن العصمة أن لا تقدر ... والصبر على الحجامة والفصد ، إذا تولاه غيرك ، أيسر من الصبر على فصدك لنفسك وحجامتك ... والجائع عند غيبة الطعام ، أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها ...

فلهذا عظمت فتنة السراء .

النوع الثانى : ما لا يوافق الهوى والطبع ... وذلك لا يخلو ، إما أن يرتبط باختيار العبد — كالطاعات ، والمعاصى — أو لا يرتبط باختياره — كالمصائب والنوائب — أو لا يرتبط باختياره ، ولكن له اختيار فى إزالته — كالتشفى من المؤذى بالانتقام منه .

فهذه ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما يرتبط باختياره ، وهو سائر أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية ... وهما ضربان :

الضرب الأول : الطاعة ، والعبد يحتاج إلى الصبر عليها ... فالصبر على الطاعة شديد ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية ، وتشتهى الربوبية ... ولذلك قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وهى مضمرة ما أظهره فرعون من قوله : (أنا ربكم الأعلى) ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا ... فأظهره ، إذا استخف قومه فأطاعوه !! .

وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان ممتنعاً من إظهاره ... فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته واستبعاده ، ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ، ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء ...

فإذن : العبودية شاقة على النفس مطلقاً ...

ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل : كالصلاة ، ومنها ما يكره بسبب البخل : كالزكاة ، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً : كالحج والجهاد .

فالصبر على الطاعة : صبر على الشدائد ، ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاثة أحوال :

الحالة الأولى : قبل الطاعة ... وذلك فى تصحيح النية ، والإخلاص ، والصبر عن شوائب الرياء ، ودواعى الآفات ، وعقد العزم على الإخلاص ، والوفاء ... وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص و آفات الرياء ، ومكايد النفس .

وقد نبه عليه — صلوات الله وسلامه عليه — إذ قال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

وقال تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) .

ولهذا قدم الله تعالى : الصبر على العمل ، فقال تعالى : (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) .

الحالة الثانية : حالة العمل ، كى لا يغفل عن الله فى أثناء عمله ، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير ، فيلازم الصبر عن دواعى الفتور إلى الفراغ ... وهذا أيضاً من شدائد الصبر ، ولعله المراد بقوله تعالى : (نعم أجر العاملين ، الذين صبروا) : أى صبروا إلى تمام العمل .

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ... إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء ... والصبر على النظر إليه بعين العجب ، وعن كل ماينطل عمله ... ويحبط أثره ... كما قال تعالى : (ولا تبطلوا أعمالكم) ، وكما قال تعالى : (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) .

فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى ، فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ، ونفل . . وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعاً . . .

وقد جمعهما الله تعالى فى قوله : (إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى) . . .

فالعدل : هو الفرض . . .

وإيتاء ذى القربى : هو المروءة ، وصلة الرحم . . .

والإحسان : هو النفل .

وكل ذلك يحتاج إلى صبر .

الضرب الثانى : المعاصى :

فما أحوج العبد إلى الصبر عنها ... وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله جل فى علاه : (وينهى عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغى) ... وقال صلى الله عليه وسلم : « المهاجر : من هجر السوء ... والمجاهد : من جاهد هواه » ...

والمعاصى : مقتضى باعث الهوى .

وأشد أنواع الصبر عن المعاصى : الصبر عن المعاصى التى صارت مألوفة بالعادة ... فإن العادة طبيعة خامسة .

فإذا أضيفت العادة إلى الشهوة ، تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى ... فلا يقوى باعث الدين على قمعها !!

ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله ، كان الصبر عنه أثقل على النفس ، كالصبر عن معاصى اللسان ، من الغيبة ، والكذب ، والمراء والثناء على النفس — تعريضاً وتصريحاً — وأنواع المزح المؤذى للقلوب ، وضروب الكلمات التى يقصد بها الإزراء والاستحقار ، وذكر الموتى ، والقدح فيهم : فى علومهم ، وسيرهم ، ومناصبهم ...

فإن ذلك ، فى ظاهره غيبة ... وفى باطنه ثناء على النفس ...

فللنفس فيه شهوتان :

إحداهما : نفى الغير ... والأخرى : إثبات نفسه ... وبها تم له الربوبية ، التى هى فى طبعه ، وهى ضد ما أمر به من العبودية ...

ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتاداً فى المحاورات ، يعسر الصبر عنها ، وهى أكبر الموبقات ، حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب ، لكثرة تكريرها ، وعموم الأنس بها ...

فترى الإنسان يلبس حريراً — مثلا — فسيستبعد غاية الاستبعاد ، ويطلق لسانه طول النهار فى أعراض الناس ، ولا يستنكر ذلك مع ما ورد فى الخبر : « من أن الغيبة أشد من الزنا ، ومن لم يملك لسانه فى المحاورات ، ولم يقدر على الصبر عن ذلك ، فيجب عليه العزلة والانفراد » ! ! فلا ينجيه غيره . .

فالصبر على الانفراد ، أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة ... وتختلف شدة الصبر فى آحاد المعاصى ، باختلاف داعية تلك المعصية فى قوتها وضعفها . . .

وأيسر من حركة اللسان ، حركة الخواطر ، باختلاج الوساوس . .

فلا جرم ، يبقى حيث النفس فى العزلة ، ولا يمكن الصبر عنه أصلا إلا بأن يغلب على القلب هم آخر فى الدين يستغرقه .. كمن أصبح وهمومه هم واحد ... وإلا فإن لم يستعمل الفكر فى شىء معين ، لم يتصور فتور الوسواس عنه .

القسم الثانى : ما لا يرتبط هجومه باختياره — وله اختيار فى دفعه ... كما لو أوذى بفعل أو قول وجنى عليه فى نفسه أو ماله ...

فالصبر على ذلك ، بترك المكافأة تارة يكون واجباً ، وتارة يكون فضيلة . . .

قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعد إيمان رجل إيماناً ، إذا لم يصبر على الأذى .

وقال تعالى : (ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون) .

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ! ! فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاحمرت وجنتاه ... ثم قال : « يرحم الله أخى موسى . . . لقد أوذى بأكثر من هذا ... فصبر » ! !

وقال تعالى : (ودع أذاهم ، وتوكل على الله) .

وقال تعالى : (واصبر على ما يقولون ، واهجرهم هجرا جميلا) .

وقال تعالى : (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ... فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) .

وقال تعالى : (لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ... وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) .

أى تصبروا عند المكافأة .

ولذلك مدح الله العافين عن حقوقهم فى القصاص وغيره ، فقال تعالى : (وإن عاقبتم ، فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ... ولئن صبرتم ، لهو خير للصابرين) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك » !!

ورأيت فى الإنجيـــل :

قال عيسى بن مريم عليه السلام : « لقد قيل لكم من قبل : إن السن بالسن ، والأنف بالأنف ، وأنا أقول لكم : لا تقاوموا الشر بالشر ... بل من ضرب خدك الأيمن : فحول إليه الخد الأيسر ... ومن أخـذ رداءك ، فأعطه إزارك ... ومن سخرك لتسير معه ميلا : فسر معه ميلين » .

وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى ...

فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر ، لأنه يتعاون فيه باعث الدين ، وباعث الشهوة والغضب جميعاً . . .

• • •

القسم الثالث : ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره ، كالمصائب ، مثل موت الأعزة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة

بالمرض ، وعمى العين ، وفساد الأعضاء ... وبالجملة سائر أنواع البلاء .

فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر ...

قال ابن عباس رضى الله عنهما :

الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه :

صبر على أداء فرائض الله تعالى ، فله ثلاثمائة درجة .

وصبر على محارم الله تعالى ، فله ستمائة درجة .

وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى ، فله تسعمائة درجة .

وإنما فضلت هذه الرتبة (مع أنها من الفضائل على ما قبلها ، وهى من الفرائض) : لأن كل مؤمن يقدر على الصبر على المحارم .

فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء ، لأنه بضاعة الصديقين ... فإن ذلك شديد على النفس ... ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أسألك من اليقين ما تهون به على مصائب الدنيا » .

فهذا صبر ، مستنده حسن اليقين .

وقال أبو سليمان : والله ما نصبر على ما نحب... فكيف نصبر على ما نكره ؟ .

وقال النبى الكريم صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : (إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ، ثم استقبل

ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً) ...

وقال صلى الله عليه وسلم : « انتظار الفرج بالصبر عبادة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة ، فقال كما أمر الله تعالى : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم اؤجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيراً منها ، إلا فعل الله به ذلك » ! !

وقال أنس : حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه — أى عينيه — ؟ قال سبحانك ! لاعلم لنا إلا ما علمتنا ! قال تعالى : « جزاؤه الخلود فى دارى ، والنظر إلى وجهى ! ! »

وقال صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عزوجل : إذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشكنى إلى عواده . أبدلته لحما خيراً من لحمه ، ودماً خيراً من دمه . . . فإذا أبرأته : أبرأته ولا ذنب له ، وإن توفيته : فإلى رحمتى » .

وقال داود عليه السلام :

« يارب : ما جزاء الحزين الذى يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال : جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان ، فلا أنزعه عنه أبداً » .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى خطبته :

ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر ، إلا كان ما عوضه منها أفضل مما انتزع منه . . وقرأ قوله تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) .

. وسئل « فضيل » عن الصبر ، فقال : هو الرضا بقضاء الله . . قيل وكيف ذلك ؟ قال : الراضى لايتمنى فوق منزلته ! !

وقيل : حبس « الشبلى » رحمه الله فى « المارستان » ، فدخل عليه جماعة ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : أحباؤك جاءوك زائرين . . فأخذ يرميهم بالحجارة ، فأخذوا يهربون ، فقال : لو كنتم أحبائى : لصبرتم على بلائى ! !

وكان بعض العارفين فى جيبه « رقعة » يخرجها كل ساعة ويطالعها .. وكان فيها : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) .

ويقال إن امرأة « فتح الموصلى » عثرت . . فانقطع ظفرها . . فضحكت . . فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه ، أزالت عن قلبى مرارة وجعه ! !

وقال « داود » لسليمان عليهما السلام :

يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات.

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم :

« من إجلال الله ومعرفة حقه: أن لا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك » .

ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوماً وفى كمه « صرة » ، فافتقدها ، فإذا هى قد أخذت من كمه . . فقال : بارك الله له فيها . . لعله أحوج إليها منى .

وروى عن بعضهم أنه قال :

مررت على « سالم ، مولى أبى حذيفة » فى القتلى وبه رمق ، فقلت له : أسقيك ماء ؟ فقال : جرنى قليلا إلى العدو ، واجعل الماء فى الترس ، فإنى صائم . . فإن عشت إلى الليل : شربته ! !

وهكذا كان صبر سالكى طريق الآخرة على بلاء الله تعالى :

فإن قلت : فبماذا تنال درجة الصبر فى المصائب وليس الأمر إلى اختياره . . فهو مضطر ، شاء أم أبى ؟

فإن كان المراد به أن لا تكون فى نفسه كراهية المصيبة ، فذلك غير داخل فى الاختيار .

• • •

فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع ، وشق الجيوب ، وضرب الخدود ، والمبالغة فى الشكوى ، وإظهار الكآبة ، وتغيير العادة فى الملبس والمفرش والمطعم . . فاعلم أن هذه الأمور داخلة تحت

اختياره . . فينبغى أن يجتنب جميعها ، ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ، ويبقى مستمراً على عادته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعته فاسترجعت . .

كما روى عن « الرميضاء أم سليم » رحمها الله أنها قالت :

توفى ابن لى ، وزوجى أبو طلحة غائب ، فقمت ، فسجيته فى ناحية البيت . . فقدم أبو طلحة ، فقمت ، فهيأت له إفطاره . . فجعل يأكل . . فقال : كيف الصبى ، قلت : بأحسن حال بحمد الله ومنته . فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة . . ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك . . حتى أصاب منى حاجته ، ثم قلت : ألا تعجب من جيراننا ؟ قال : مالهم ؟ قلت : أعيروا عارية ، فلما طلبت منهم واسترجعت : جزعوا : فقال : بئس ما صنعوا . . فقلت : هذا ابنك ، كان عارية من الله تعالى ، وإن الله قد قبضه إليه . . فحمد الله واسترجع ، ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره ، فقال : اللهم بارك لهما فى ليلتهما . .

. قال الراوى : فلقد رأيت لهما بعد ذلك فى المسجد سبعة ، كلهم قد قرأوا القرآن ! !

وروى جابر أنه عليه السلام قال : رأيتنى دخلت الجنة . . . فإذا أنا بالرميضاء : امرأة أبى طلحة . . .

وقد قيل : الصبر الجميل ، هو أن لايعرف صاحب المصيبة من غيره ، ولايخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ، ولا فيضان العين

بالدمع ... إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء ، ولأن البكاء توجع القلب على الميت ، فإن ذلك مقتضى البشرية ... ولا يفارق الإنسان إلى الموت .

ولذلك لما مات « إبراهيم » — ولد النبي صلى الله عليه وسلم — فاضت عيناه ، فقيل له : « أما نهيتنا عن هذا ؟ فقال : إن هذه رحمة ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ! ! »

بل ذلك أيضاً لا يخرج عن مقام الرضا ...

فالمقدم على الحجامة والفصد راض به ، وهو متألم بسببه — لا محالة — وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه .

وكتب « ابن أبي نجيح » يعزي بعض الخلفاء : إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه : من عظم حق الله تعالى عنده فيما ألقاه له ..

اعلم أن الماضي قبلك : هو الباقي لك ، والباقي بعدك هو المأجور فيك .

واعلم أيضاً أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه ... فإذن : مهما دفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين ...

نعم ! من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب ...

وقد قيل : من كنوز البر ، كتمان المصائب والأوجاع والصدقة .

• • •

فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام فى جميع الأحوال والأفعال ... فإن الذى كفى الشهوات كلها واعتزل وحده ، لايستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهراً ، وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطناً ... فإن اختلاج الخواطر لايسكن ... وأكثر جولان الخواطر إنما يكون فى فائت لا تدارك له ، أو فى مستقبل لابد وأن يحصل منه ماهو مقدر .

فهو كيفما كان تضييع زمان ... وآلة العبد : قلبه ... وبضاعته : عمره ... فإذا غفل القلب فى نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنساً بالله تعالى ، أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ، ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى ، فهو مغبون .

هذا إن كان فكره ووسواسه فى المباحات مقصوراً عليه ، ولايكون ذلك غالباً ... بل يتفكر فى وجوه الحيل لقضاء الشهوات ... إذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه فى جميع عمره ، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه ... بل يقدر المخالفة من أخلص الناس فى حبه حتى فى أهله وولده ، ويتوهم مخالفتهم له ، ثم يتفكر فى كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به فى مخالفته ، ولا يزال فى شغل دائم .

فللشيطان جندان : جند يطير ، وجند يسير .

والوسواس : عبارة عن حركة جنده « الطيار » ... والشهوة : عبارة عن حركة جنده « السيار » ... وهذا لأن الشيطان خلق من النار ،

وخلق الإنسان من صلصال كالفخار ... والفخار اجتمع فيه مع النار « الطين » ، والطين : طبيعته السكون ، والنار طبيعتها الحركة ... فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك ؛ بل لا تزال تتحرك بطبعها .

وقد كلف الملعون — المخلوق من النار — أن يطمئن عن حركته ساجداً لما خلق الله من الطين ... فأبى ، واستكبر ، واستعصى ... وعبر عن سبب استعصائه بأن قال : (خلقتنى من نار ، وخلقته من طين) .

فإذن : حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم — صلوات الله وسلامه عليه — فلا ينبغى أن يطمع فى سجوده لأولاده .

ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه ، وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقياده وإذعانه ... وانقياده بالإذعان : سجود منه ، فهو روح السجود ، وإنما وضع الجبهة على الأرض قالبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح ، ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك .. كما أن الانبطاح بين يدى المعظم المحترم يرى استخفافاً بالعادة .

فلا ينبغى أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر .. وقلب الروح عن الروح ... وقشر اللب عن اللب ... فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب ، وتحقق أن الشيطان من المنظرين ، فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح همومك هم واحد.. فتشغل قلبك بالله وحده ، فلا يجد الملعون مجالا فيك .. فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين فى الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين .

ولاتظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ ، بل هو سيال ، يجرى من ابن آدم مجرى الدم . . . وسيلانه مثل الهواء فى القدح . . .

فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو غيره فقد طمعت فى غير مطمع ، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء — لا محالة ! !

فكذلك القلب المشغول بفكر مهم فى الدين لايخلو عن جولان الشيطان . . وإلا فمن غفل عن الله تعالى — ولو فى لحظة — فليس فى تلك اللحظة قرين إلا الشيطان . . .

ولذلك قال الله تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له له شيطاناً فهو له قرين) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ » . . .

وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه ، كان ظاهره فارغاً ، ولم يبق قلبه فارغاً ، بل يعشش فيه الشيطان ، ويبيض ويفرخ ، ثم تزدوج أفراخه أيضاً وتبيض مرة أخرى، وتتفرخ .

وهكذا ... يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات.. لأن طبعه من النار . وإذا وجد الحلفاء « اليابسة » : كثر توالده ... فلا يزال تتوالد النار من النار ، و تنقطع البتة ، بل تسرى شيئاً فشيئاً على الاتصال ... فالشهوة فى نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار . . !

وكما لاتبقى النار إذا لم يبق لها قوت — وهو الحطب — فلا يبقى للشيطان مجال . . إذا لم تكن شهوة ! !

فإذن : إذا تأملت : علمت أن أعدى عدوك ، شهوتك ، وهى صفة نفسك . . .

ولذلك قال : « الحسين بن منصور الحلاج » — حين كان يصلب — وقد سئل عن التصوف : ما هو ؟ فقال :

هى نفسك . . . إن لم تشغلها : شغلتك . . .

فإذن : حقيقة الصبر وكماله : الصبر عن كل حركة مذمومة ... وحركة الباطن : أولى بالصبر عن ذلك .

وهذا صبر دائم ، لايقطعه إلا الموت .

نسأل الله حسن التوفيق .. بمنه كرمه .

• • •

دواء الصبر
وما يستعان به عليه

اعلم أن الذى أنزل الداء : أنزل الدواء ، ووعد الشفاء .

فالصبر — وإن كان شاقاً ، أو ممتنعاً — فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل . . .

فالعلم والعمل : هما الأخلاط التى منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها ، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر ، وعمل آخر . . .

وكما أن أقسام الصبر مختلفة : فأقسام العلل المانعة منه مختلفة ... إذا اختلفت العلل : اختلف العلاج . . .

إذ معنى العلاج : مضادة العلة وقمعها .

واستيفاء ذلك مما يطول . . .

ولكنا نعرف الطريق فى بعض الأمثلة ، فنقول :

إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع — مثلا — وقد غلبت عليه الشهوة ، بحيث ليس يملك معها فرجه ، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه ، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه . . . إذ لاتزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر . والأعمال الصالحة ، فنقول :

قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى ، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر ، فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر . . . فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة .

فأما باعث الشهوة ، فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور :

أحدهما : أن ننظر إلى مادة قوتها ، وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها . . . فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل فى نفسه ، ضعيف فى جنسه ، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة .

الثانى : قطع أسبابه المهيجة فى الحال . . فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة ... إذ النظر يحرك القلب ، والقلب يحرك الشهوة . . وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النظرة سهم مسموم من سهام « إبليس » . . وهو سهم يسدده الملعون ، ولا ترس يمنع منه إلا تغميض الأجفان ، أو الهرب من صوب رمية . . . فإنه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور . . . فإذا انقلبت عن صوب الصور : لم يصبك سهمه .

الثالث : تسلية النفس بالمباح من الجنس الذى تشتهيه . . وذلك بالنكاح ، فإن كل ما يشتهيه الطبع : ففى المباحات من جنسه ما يغنى

عن المحظورات منه ، وهذا هو العلاج الأنفع فى حق الأكثر . . . فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ، ثم قد لايقمع الشهوة فى حق أكثر الرجال . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالباءة ، فمن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإن الصوم له وجاء » .

فهذه ثلاثة أسباب :

فالعلاج الأول — وهو قطع الطعام — يضاهى قطع العلف عن البهيمة الجموح ، وعن الكلب الضارى ، ليضعف ، فتسقط قوته .

والثانى : يضاهى تغييب اللحم عن الكلب ، وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لاتتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها .

والثالث : يضاهى تسليتها بشىء قليل مما يميل إليه طبعها ، حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب .

وأما تقوية باعث الدين : فإنما تكون بطريقين :

أحدهما : إطعامه فى فوائد المجاهدة وثمراتها فى الدين والدنيا . . .

ذلك بأن يكثر فكره فى الأخبار التى أوردناها فى فضل الصبر وفى حسن عواقبه فى الدنيا والآخرة .

وفى الأثر : إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات ، وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة . . . إذ فاته مالا يبقى معه إلا مدة الحياة ، وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر . . .

ومن أسلم خسيساً فى نفيس : فلا ينبغى أن يحزن لقوات الخسيس فى الحال .

وهذا من باب المعارف ، وهو من الإيمان . . فتارة يضعف ، وتارة يقوى . . . فإن قوى : قوى باعث الدين ، وهيجه تهييجاً شديداً . . . وإن ضعف : ضعفه .

وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين ، وهو المحرك لعزيمة الصبر ، وأقل ما أوتى الناس : اليقين ، وعزيمة الصبر .

والثانى أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجاً قليلا قليلا، حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجرىء عليها وتقوى منته فى مصارعتها.

فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة : تؤكد القوى التى تصدر منها تلك الأعمال .

ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين .

• • •

وبالجملة : فقوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء . . . وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة .

فالعلاج الأول : يضاهى أطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة ، ووعده بأنواع الكرامة ، كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال : (وإنكم إذاً لمن المقربين) .

والثانى : يضاهى تعويد الصبى الذى يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجرىء عليه وتقوى فيه منته .

فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر : ضعف فيه باعث الدين ، ولايقوى على الشهوة . . . وإن ضعفت .

ومن عود نفسه مخالفة الهوى : غلبها ، مهما أراد . . . فهذا منهاج العلاج فى جميع أنواع الصبر . . . ولايمكن استيفاؤه ، وإنما أشدها ، كف الباطن عن حديث النفس ، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له : بأن قمع الشهوات الظاهرة ، وآثر العزلة ، وجلس للمراقبة والذكر والفكر .

فإن الوسواس لايزال يجاذبه من جانب إلى جانب ، وهذا لاعلاج له البتة إلا قطع العلائق كلها — ظاهراً وباطناً — بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء . . . ثم الاعتزال إلى زاويته بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به .

ثم كل ذلك لا يكفى مالم تصر الهموم هماً واحداً ، وهو الله تعالى ، ثم غلب ذلك على القلب . . . فلا يكفى ذلك مالم يكن له مجال فى الفكر وسير بالباطن فى ملكوت السماوات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفته سبحانه ، حتى إذا استولى ذلك فى قلبه ، دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووساوسه ، وإن لم يكن له سير بالباطن ،

فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة فى كل لحظة من القراءة والأذكار والصلوات ، ويحتاج — مع ذلك — إلى تكليف القلب الحضور .

فإن الفكر بالباطن ، هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة .

ثم إذا فعل ذلك كله ، لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها ... إذ لا يخلو فى جميع أوقاته عن حوادث تتجدد ، فتشغله عن الفكر والذكر ، من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط . . . إذ لايستغنى عن مخالطة من يعينه فى بعض أسباب المعيشة . . . فهذا أحد الأنواع الشاغلة .

وأما النوع الثانى : فهو ضرورى ، بل أشد ضرورة من الأول . . . وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش ، فإن تهيئة ذلك أيضاً تحوج إلى شغل ، إن تولاه بنفسه ، وإن تولاه غيره . . . فلا يخلو عن شغل قلب ممن يتولاه ، ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات ، إن لم تهجم به ملمة أو واقعة .

فى تلك الأوقات يصفو القلب ، ويتيسر له الفكر ، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى فى ملكوت السماوات والأرض مالا يقدر على عشر عشيره فى زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق .

والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التى يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد .

فأما مقادير ماينكشف ويبالغ ما يرد من لطف الله تعالى فى الأحوال والأعمال : فذلك يجرى مجرى الصيد ، وهو يحسب الرزق . . . فقد يقل الجهد ، ويجل الصيد ، وقد يطول الجهد ويقل الحظ .

والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن ، فإنها توازى أعمال الثقلين .

وليس ذلك باختيار العبد . . . نعم : اختيار العبد فى أن يتعرض لتلك الجذبة ، بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا ، فإن المجذوب إلى أسفل سافلين لاينجذب إلى أعلى عليين ، وكل مهموم بالدنيا ، فهو منجذب إليهـــا .

فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : « إن لربكم فى أيام دهركم لنفحات . . . ألا فتعرضوا لها » .

وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سرية ، إذ قال الله تعالى : (وفى السماء رزقكم وما توعدون) . وهذا من أعلى أنواع الرزق . . . والأمور السرية غائبة عنا ، فلا ندرى متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق .

فما علينا إلا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله . كالذى يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ، ويبث البذر فيها... وكل ذلك لاينفعه إلا بمطر ، ولا يدرى : متى يقرر الله أسباب المطر ؟

إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته ، أنه يخلى سنة عن مطر ، فكذلك قلما يخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات .

فينبغى أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات ، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص ، وعرضه لمهاب رياح الرحمة ... كما يقوى انتظار الأمطار فى أوقات الربيع ، وعند ظهور القيم ، فيقوى انتظار تلك النفحات فى الأوقات الشريفة ، وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب ... كما فى يوم عرفة ، ويوم الجمعة وأيام رمضان .

فإن الهمم والأنفاس : أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته ، حتى تستدر بها الأمطار فى أوقات الاستسقاء ... وهى لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت ، أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء واستدرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار ... بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك فى قلبك وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك .. فصار ذلك حجاباً بينك وبينها . فلا تحتاج إلا إلى أن تكسر الشهوة ، ويرفع الحجاب ، فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب .

وإظهار ماء الأرض بحفر « القنا » : أسهل وأقرب من الاسترسال إليها من مكان بعيد ، منخفض عنها .

ولكونه حاضراً فى القلب ومنسياً بالشغل عنه ، سمى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكراً ، فقال تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ..

وقال تعالى : (وليذكر أولو الألباب) .

وقال تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر . . . فهل من مدكر) ؟ !

فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل ، وهو آخر درجات الصبر . . . وإنما الصبر عن العلائق كلها ، مقدم على الصبر عن الخواطر.

قال الجنيد رحمه الله :

السير من الدنيا إلى الآخرة : سهل على المؤمنين . . وهجران الخلق فى حب الحق شديد . . . والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد . . . والصبر مع الله أشد .

فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ، ثم شدة هجران الخلق ، وأشد العلائق عن النفس : علاقة الخلق وحب الجاه .

فإن لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات فى الدنيا على نفوس العقلاء .

وكيف لاتكون أغلب اللذات ومكروبها صفة من صفات الله تعالى وهى — الربوبية — والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب ، لما فيه من المناسبة لأمور ربوبية ، لقوله تعالى : (قل الروح من أمر ربى) .

وليس القلب مذموماً على حبه ذلك . . . وإنما هو مذموم فى غلط وقع له بسبب تقرير الشيطان اللعين للبعد عن عالم الأمر ، إذ حسده على كونه من عالم الأمر : فأضله وأغواه .

وكيف يكون مذموماً عليه ، وهو يطلب سعادة الآخرة ؟ فليس

يطلب إلا بقاءاً لافناء فيه ، وعزاً لا ذل فيه ، وأمناً لا خوف فيه ، وغنى لا فقر فيه ، وكمالا لا نقصان فيه ؟

وهذه كلها من أوصاف الربوبية ، وليس مذموماً على طلب ذلك .

بل حق كل عبد أن يطلب ملكاً عظيما لا آخر له . . . وطالب الملك ، طالب للعلو والعز والكمال . . . لا محالة .

ولكن الملك ملكان : ملك مشوب بأنواع الآلام ، وملحوق بسرعة الانصرام ، ولكنه عاجل . . . وهو فى الدنيا .

وملك مخلد دائم لايشوبه كدر ولا ألم ولايقطعه قاطع ، ولكنه آجل . . . وقد خلق الإنسان عجولا راغباً فى العاجلة . . . فجاء الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة التى فى طبعه فاستغواه بالعاجلة ، وزين له الحاضرة ، وتوسل إليه بواسطة الحمق . . . فوعده بالغرور فى الآخرة ، ومناه مع ملك الدنيا ، ملك الآخرة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « والأحمق : من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » .

فانخدع المخذول بغروره ، واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه ، ولم يتدل الموفق بحبل غروره . . . إذ علم مداخل فكره ، فأعرض عن العاجلة ، فعبر عن المخذولين بقوله تعالى : (كلا بل تحبون العاجلة . . . وتذرون الآخرة) ! !

وقال تعالى: (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا).

وقال تعالى : (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم) .

مكر الشيطان

ولما استطار مكر الشيطان فى كفة الخلق : أرسل الله الملائكة إلى الرسل وأوحوا إليهم ماتم على الخلق من إهلاك العدو وإغوائه ... فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقى عن الملك المجازى ، الذى لا أصل له إن سلم ولا دوام له أصلا ، فنادوا فيهم : « يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض ! أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل » .

فالتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان ، وصحف موسى وإبراهيم ، وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المخلد . . والمراد منهم : أن يكونوا ملوكاً فى الدنيا ، ملوكاً فى الآخرة . . .

أما ملك الدنيا : فالزهد فيها ، والقناعة باليسير منها . . .

وأما ملك الآخرة : فبالقرب من الله تعالى . . . يدرك بقاء لافناء فيه ، وعزا لا ذل فيه ، وقرة عين أخفيت فى هذا العالم ، لا تعلمها نفس من النفوس . . .

الشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا لعلمه بأن ملك الآخرة يفوت به ... إذ الدنيا والآخرة « ضرتان » ، ، ولعلمه بأن الدنيا لاتسلم له أيضاً ... ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضاً ، ولكن ملك الدنيا لايخلو عن المنازعات ، والمكدرات ، وطول الهموم فى التدبيرات ... وكذا سائر أسباب الجاه .

ثم مهما تسلم وتم الأسباب ، ينقضى العمر ، (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً ... فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس) .

وضرب الله تعالى لها مثلا . . . قال تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا : كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا) .

والزهد فى الدنيا : لما أن كان ملكاً حاضراً ، حسده الشيطان عليه فصده عنه .

ومعنى الزهد : أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين ، وإشارة الإيمان ... وهذا ملك بالاستحقاق ... إذ به يصير صاحبه حراً .

وباستيلاء الشهوة عليه يصير : عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه ... فيكون مسخراً ، مثل البهيمة مملوكا ، يستجره زمام الشهوة آخذ بمخنقة إلى حيث يريد ويهوى ...

فما أعظم اغترار الإنسان ! !

إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكاً ، وينال الربوبية بأن يصير عبداً ... ومثل هذا : هل يكون إلا معكوساً فى الدنيا ، منكوساً فى الآخرة ؟

ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد :

هل لك من حاجة ؟

قال : كيف أطلب منك حاجة وملكى أعظم من ملكك ! !

فقال : كيف ؟

قال : من أنت عبده ، فهو عبد لى !

فقال : كيف ذلك ؟

قال : أنت عبد شهوتك ، وغضبك ، وفرجك ، وبطنك ، وقد ملكت هؤلاء كلهم ... فهم عبيد لى ! !

فهذا — إذن — هو الملك فى الدنيا ، وهو الذى يسوق إلى الملك فى الآخر .

فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيـــا والآخرة جميعاً ، والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم ، فازوا بالدنيا والآخرة جميعاً .

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ، ومعنى التسخير والعبودية ،

ومدخل الغلط فى ذلك ، وكيفية تعمية الشيطان ، وتلبيسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه ، والإعراض عنه ، والصبر عند فواته .

إذ تصير — بتركه — ملكاً فى الحال ، وترجو به ملكاً فى الآخرة .

ومن كوشف بهذه الأمور — بعد أن ألف الجاه ، وأنس به ، ورسخت فيه — بالعادة — مباشرة أسبابه ، فلا يكفيه فى العلاج مجرد العلم والكشف ... بل لا بد وأن يضيف إليه العمل ... وعمله فى ثلاثة أمور :

أحدها : أن يهرب عن موضع الجاه لكى لايشاهد أسبابه ، فيعسر عليه الصبر مع الأسباب ، كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة . . .

ومن لم يفعل هذا ، فقد كفر نعمة الله فى سعة الأرض . إذ قال تعالى : (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ . . .) .

الثـانى : أن يكلف نفسه فى أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده ... فيبدل التكلف والتبذل وزى الحشمة ، بزى التواضع ... وكذلك كل هيئة وحال فعل ، فى مسكن ، وملبس ، وقيام ، وقعود ... كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه . . .

فينبغى أن يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده ... فلا معنى للمعالجة إلا المضادة .

الثالث : أن يراعى فى ذلك التلطف والتدريج . . فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل . . فإن الطبع نفور . . ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج ، فيترك البعض ويسلى نفسه بالبعض الآخر .

ثم إذا قنعت نفسه بذلك البغض . . ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض إلى أن يقنع بالبقية ... وهكذا يفعل شيئاً فشيئاً تلك الصفات التى رسخت فيه .

وإلى هذا التدريج : الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق . . ولاتبغض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى » .

وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : « لاتشدوا هذا الدين .. فإن من يشاده يغلبه » .

ومن دواعى التدرج : ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه . . كما كان يشق عليه الصبر معه ، فتنعكس أموره ، فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً ، وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لايصبر عنه .

وهذا لايعرف إلا بالتجربة والذوق . . وله نظير فى العادات .

فإن الصبى يحمل على التعلم فى الابتداء قهراً ، فيشق عليه الصبر عن اللعب ، والصبر مع العلم ، حتى إذا انفتحت بصيرته ، وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشق عليه الصبر عن العلم ، والصبر على اللعب .

وإلى هذا يشير ما حكى عن بعض العارفين أنه سأل « الشبلى » عن الصبر : أيه أشد ؟

فقال : الصبر فى الله تعالى ؟

فقال : لا .

فقال : الصبر لله .

فقال : لا .

فقال : الصبر مع الله .

فقال : لا .

فقال : « فإيش » ؟ . . قال : الصبر عن الله .

فصرخ « الشبلى » صرخة كادت روحه تزهق ! !

• • •

وقد قيل فى معنى قوله تعالى : (اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا) : اصبروا فى الله ، وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله .

وقيل : الصبر لله : غناء . . والصبر بالله : بقاء .

والصبر مع الله : وفاء . . والصبر عن الله : جفاء .

وقد قيل فى معناه :

والصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر فى سائر الأشياء : محمود

وقيل أيضاً :

والصبر يجمل فى المواطن كلها إلا عليك ، فإنه لا يجمل

• • •

من آداب المجالس

قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا ، يفسح الله لكم ، وإذا قيل انشزوا فانشزوا ، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . والله بما تعملون خبير) .

عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والجلوس فى الطرقات » قالوا يا رسول الله : ما لنا بد من مجالسنا ، نتحدث فيها ... قال : فإذا أبيتم إلا المجلس ، فاعطوا الطريق حقه ... قالوا : وما حقه ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن : تفسحوا وتوسعوا » (رواه الأربعة)

وكان ابن عمر إذا قام له رجل من مجلسه : لم يجلس فيه !

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به » .

(رواه مسلم وأبو داود والترمذى)

وعن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : « كنا إذا أتينا النبى صلى الله عليه وسلم جلس أحدنا حيث ينتهى » . (رواه أصحاب السنن)

وعنه قال : « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم متكئاً على وسادة على يساره » . (رواه الترمذى)

وعنه قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر تربع فى مجلسه حتى تطلع الشمس » . (رواه أبو داود)

وقال أبو سعيد رضى الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس : احتبى بيديه » . (رواه أبو داود والبزار)

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما » .
(رواه أبو داود والترمذى)

وللترمذى : « لايؤم الرجل فى سلطانه ، ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه » .

• • •

ومن آداب المجالس : التحذير من التناجى الذى نهى الله عنه :

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون . إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما .. فإن ذلك يحزنه »
(رواه الأربعة)

وعن أنس رضى الله عنه قال ، أسر إلىّ النبى صلى الله عليه وسلم سراً ،

فما أخبرت به أحداً بعده . . ولقد سألتني أم سليم فما أخبرتها به » .
(رواه الشيخان)

• • •

ومن آداب المجالس : تشميت العاطس إذا حمد الله :

عن أنس رضي الله عنه قال : « عطس عند النبي صلى الله عليه وسلم رجلان ، فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر ، فقال الذي لم يشمته : « عطس فلان ، فشمته » وعطست أنا فلم تشمتني ؟ قال : إن هذا حمد الله ، وأنك لم تحمد الله » . (رواه الخمسة)

ومن آداب العاطس أيضاً ما رواه أبو هريرة قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا عطس : غطى وجهه بيده — أو بثوبه — وغض بها صوته » . (رواه الترمذي وأبو داود)

ومن الأحكام الإسلامية الواردة في العطاس ، ما قاله أبو أيوب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا عطس أحدكم فليقل : الحمد لله على كل حال ، وليقل الذي يرد عليه : يرحمك الله ، وليقل هو : يهديكم الله ويصلح بالكم » . (رواه الترمذي والبخاري وأبو داود)

وقد عطس رجل عند ابن عمر رضي الله عنه فقال : الحمد لله والسلام على رسول الله . . قال ابن عمر : وأنا أقول : الحمد لله والسلام على رسول الله ، وليس هكذا علمنا النبي صلى الله عليه وسلم ، بل علمنا أن نقول : الحمد لله على كل حال » . (رواه الترمذي)

وعن سالم بن عبيد رضى الله عنه قال : عطس رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليك وعلى أمك . . إذا عطس أحدكم فليقل : الحمد لله رب العالمين ، وليقل له من يرد عليه : يرحمك الله ، وليقل : يغفر الله لنا ولكم » . .

(رواه أصحاب السنن)

فإذا كان العاطس غير مسلم : فعلى من سمعه أن يقول له . . كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : عن أبى موسى رضى الله عنه قال : « كان اليهود يتعاطسون عند النبى صلى الله عليه وسلم ، يرجون أن يقول لهم يرحمكم الله ، فيقول : يهديكم الله ويصلح بالكم » .

(رواه الترمذى وأبو داود والحاكم)

وقد فصلنا الكلام فى العطاس ، لما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يحب العطاس ، ويكره التثاؤب.. فإذا عطس أحدكم وحمد الله كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول له : يرحمك الله . وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان ، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان » . .

(رواه البخارى وأبو داود والترمذى)

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « التثاؤب من الشيطان ، فإذا تثاءب أحدكم : فليكظم ما استطاع » .

وفى رواية : « إذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، ولا يقل : هاها . . فإنما ذلكم من الشيطان يضحك منه » .

(رواه مسلم وأبو داود والترمذى)

حق الولد على الوالد

ومن سنن الإسلام أن يختار الأب لابنه الاسم الحسن .

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن أحب أسمائكم إلى الله : عبد الله وعبد الرحمن » .

(رواه مسلم والترمذى وأبو داود)

وعن أبى وهب الجشمى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تسموا بأسماء الأنبياء . . . وأحب الأسماء إلى الله : عبد الله ، وعبد الرحمن . . . وأصدقها : حارث ، وهمام . . . وأقبحها : حرب ومرة » . (رواه أبو داود والنسائى)

وقد نهى الإسلام عن أسماء لا يجوز للمسلم أن يتسمى بها :

فمن ذلك ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أخنى الأسماء يوم القيامة عند الله رجل تسمى : ملك الأملاك » . (رواه الأربعة)

وزاد مسلم : « لا ملك إلا الله تعالى » .

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل كان يسمى ملك الأملاك . . . لا مالك إلا الله تعالى » (رواه مسلم)

وعن جابر رضى الله عنه قال : « أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن ينهى عن أن يسمى : بيعلى ، وببركة ، وبأفلح ، وبيسار ، وبنافع ، وبنحو ذلك . . ثم رأيته سكت عنها ، فلم يقل شيئاً ، حتى قبض » .

وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . . لايضرك بأيهن بدأت . . ولا تسمين غلامك يساراً ، ولا رباحاً ، ولا مديحاً ، ولا أفلح . . فإنك تقول أين هو ؟ . فلا يكون ، فيقول : لا » ومعنى هذا : أن لا تسمين غلامك أو ولدك أو غيرهما « يساراً ، أو رباحاً ، من الربح — أو مديحاً : من المدح ، والظفر ، أو أفلح : من الفلاح . . ومثلها نافع ، وبركة . . لئلا يتشاءم بعض الناس إذا سأل عنه . . فيقال له إنه غير موجود : أى أن اليسار غير موجود ، والبركة غير موجودة . . . إلى غير ذلك » .

ومن حرص النبى صلى الله عليه وسلم على التسمية بالاسم الحسن أنه كان يغير الأسماء غير الحسنة إلى أخرى . حسنة .

فعن سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه أنه جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « ما اسمك ؟ قال : حزن . قال أنت سهل . قال لا أغير اسماً سمانيه أبى . قال ابن المسيب : فما زالت الحزونة فينا بعده ! ! . (رواه البخارى وأحمد وأبو داود)

وعنَ ابن عمر رضى الله عنهما قال : « إن ابنة لعمر كانت تسمى « عاصية » فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جميلة » .
(رواه مسلم وأبو داود والترمذى)

وعن محمد بن عمرو بن عطاء رضى الله عنهم قال : سميت ابنتى : «برة » فقالت لى زينب بنت أبى سلمة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الاسم ، وسميت « برة » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزكوا أنفسكم . . الله أعلم بأهل البر منكم . فقالوا : بم نسميها ؟ قال : سموها زينب » .

وعن شريح بن هانى عن أبيه رضى الله عنهما ، أنه لما وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه ، سمعهم يكنونه بأبى الحكم ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إن الله هو الحكم ، وإليه الحكم . . فلم تكنى أبا الحكم ؟ فقال : إن قومى إذا اختلفوا فى شىء أتونى ، فحكمت بينهم ، فرضى كلا الفريقين . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحسن هذا . . . فما لك من الولد ؟ قال : لى شريح ، ومسلم ، وعبد الله . . قال : فمن أكبرهم ؟ قال : قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح » .

وقال مسروق : لقيت عمر رضى الله عنه . قال : من أنت ؟ قلت : مسروق بن الأجدع ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الأجدع : شيطان » . (رواه أبو داود)

• • •

النهى عن التشاؤم

والإسلام : يحذر من التشاؤم . . . .

ولذلك أغلق الباب الذى يؤدى إليه :

عن أبى موسى رضى الله عنه قال : « ولد لى غلام ، فأتيت به النبى صلى الله عليه وسلم : فسماه إبراهيم وحنكه بتمرة ، ودعا له » .
(رواه الشيخان)

• • •

المواليد • • • فى الاسلام

ومن أحكام المواليد فى الإسلام : أن تذبح عنه شاة يوم السابع ، سماها الإسلام : عقيقة .

فعن سمرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كل غلام رهن بعقيقته ، تذبح عنه يوم سابعه ، ويحلق ، ويسمى » .
(رواه أصحاب السنن)

• • •

ادب الاسلام •• فى النداء

ومن أدب الإسلام فى النداء ألا يقول الإنسان للمملوك : يا عبدى ، ولا للمملوكة : يا أمتى .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : «لايقولن أحــدكم : عبدى ، وأمتى . . كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم إماء الله ، ولكن ليقل : غلامى ، وجاريتى ، وفتياى ، وفتاتى ».

(رواه مسلم وأبو داود)

• • •

ومن أحكام الإسلام ألا يقال للمنافق « يا سيد » .

فعن بريدة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ولا تقولوا للمنافق : سيداً ... فإنه إن يك سيداً : فقد أسخطتم ربكم عز وجل » . (رواه أبو داود والنسائى)

ادب الالفاظ

ومن أدب الألفاظ : ألا يسب المؤمن « الدهر » .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى : يسب بنو آدم الدهر ، وأنا الدهر ... بيدى الليل والنهار ! ! » .

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله عز وجل : يؤذينى ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر . . . أقلب الليل والنهار » .

(رواهما الثلاثة)

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قال الله عز وجل : « يؤذينى ابن آدم . . . يقول : ياخيبة الدهر . . . فلا يقولن أحدكم : ياخيبة الدهر ، فإنى أنا الدهر : أقلب ليله ونهاره . . . فإذا شئت : قبضتهما ».

(رواه مسلم والإمام أحمد)

اقبح الالفاظ

ومن أدب الألفاظ فى الإسلام مانهى عنه النبى صلى الله عليـــه وسلم فى قوله : « لا يقولن أحدكم : خبثت نفسى ، ولكن ليقل : تعست نفسى » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسموا العنب الكرم ، فإن الكرم الرجل المسلم » .

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لايقولن أحدكم : الكرم ، فإنما الكرم : قلب المؤمن » . (رواه الثلاثة)

وعن حذيفة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ولا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا : ماشاء الله ثم شاء فلان».

وعن أبى الميلج رضى الله عنه عن رجل قال : « كنت رديف النبى صلى الله عليه وسلم ، فعثرت دابته ، فقلت : تعس الشيطان ، فقال النبى صلى الله عليـــه وسلم : لا تقل تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت ويقول بقوتى ، ولكن قل : بسم الله ، فإنك إذا قلت ذلك : تصاغر حتى يكون مثل الذباب » . . .

(رواهما أبو داود والنسائى)

خلق الأشياء

وهذا قبس من أنوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقصد بذكره أن يقف المسلم على حقائق الأشياء التى خلقها الله تعالى . . . وفيها ما يعمق إيمانه بقضاء الله وقدره... حتى يرضى بالقضاء ، ويصبر على البلاء ، ويشكر فى الرخاء ...

فسبحان من خلق كل شيء فقدره تقديرا ، وسبحان من خلق كل شيء بقدر ، وسبحان من يقول : (وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة ، الكبير المتعال) .

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أنه قال لابنه :

يا بنى : إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك » . . .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ما خلق الله تعالى : « القلم » ، فقال له : اكتب ، فقال : رب ، وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ...

يا بنى : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من مات على غير هذا فليس منى » !! (رواه أبو داود والترمذى)

وعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال :

« دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعقلت ناقتي بالباب ، فأتاه ناس من بني تميم ، فقال : اقبلوا البشرى يا بني تميم ، قالوا : قد بشرتنا ، فأعطنا مرتين ... ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن ، فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن ، إذ لم يقبلها بنو تميم ... قالوا : قد قبلنا يا رسول الله . قالوا : جئناك لنسألك عن هذا الأمر . قال : كان الله ولم يكن شيء غيره ... وكان عرشه على الماء . . . وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض ، فنادى مناد : ذهبت ناقتك يا ابن الحصين ، فانطلقت ، فإذا هي بقطيع دونه السراب » .

وقال عمر رضي الله عنه : قام فينا النبي صلى الله عليه وسلم مقاماً ، فأخبرنا عن بدء الخلق ، حتى دخل أهل الجنة منازلهم ، وأهل النار منازلهم . . . حفظ ذلك من حفظه ، ونسيه من نسيه » .

(رواهما البخاري)

• • •

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم في قوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) .

(رواه مسلم والإمام أحمد)

• • •

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم :
« لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس ، فقال : الحمد لله . . . فحمد الله بإذنه ، فقال له ربه : رحمك الله يا آدم . . . اذهب إلى أولئك الملائكة — إلى ملإ منهم جلوس — فقل : السلام عليكم ، قالوا : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم رجع إلى ربه ، فقال : إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم . قال الله له — ويداه مقبوضتان : — اختر أيهما شئت ، قال اخترت يمين ربي ، وكلتا يدي ربي يمين مباركة ، ثم بسطها ، فإذا فيها آدم وذريته ، فقال : أي رب : ما هؤلاء ؟ قال هؤلاء ذريتك ، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه ، فإذا فيهم رجل أضوؤهم — أو من أضوئهم — قال : يارب ، من هذا ؟ قال هذا ابنك داود ، قد كتبت له عمر أربعين سنة ... قال : يارب زده في عمره ، قال : ذاك الذي كتبت له ... قال : أي رب ، فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة ، قال : أنت وذاك ... قال : ثم أسكنه الجنة ما شاء الله ، ثم أهبط منها . . . فكان آدم يعد لنفسه ، قال : فأتاه ملك الموت ، فقال له آدم : قد عجلت ، قد كتب لي ألف سنة ، قال : بلى ، ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة ، فجحد ، فجحدت ذريته ، ونسي : فنسيت ذريته ... قال : فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود » . (رواه الترمذي بسند حسن)

طبقات بنى آدم

عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض : جاء منهم الأحمر ، والأبيض ، والأسود ، وبين ذلك ... والسهل ، والحزن ، والخبيث ، والطيب ، وبين ذلك » .

(رواه أبو داود والترمذى)

• • •

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :

« صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً صلاة العصر ، ثم قام خطيباً ، فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به : حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ... وكان فيما قال : ألا إن بنى آدم خلقوا على طبقات شتى : فمنهم من يولد مؤمناً ، ويحيا مؤمناً ، ويموت مؤمنا . . . ومنهم من يولد كافراً ، ويحيا كافرا ، ويموت كافراً ... ومنهم من يولد مؤمناً ، ويحيا مؤمناً ، ويموت كافراً . . . ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافرا ، ويموت مؤمناً ... ألا وإن منهم : البطىء الغضب ، سريع الفىء ... ومنهم : سريع الغضب ، سريع الفىء ... فتلك : بتلك ... ألا وإن منهم سريع الغضب ، بطىء الفىء ... ألا

وخيرهم : بطيء الغضب ، سريع الفيء ... ألا وشرهم : سريع الغضب ، بطيء الفيء ... ألا وإن منهم : حسن القضاء ، حسن الطلب .. ومنهم سيء القضاء ، حسن الطلب ... فتلك : بتلك .. ألا وإن منهم السيء القضاء ، والسيء الطلب ... ألا وخيرهم : الحسن القضاء ، الحسن الطلب ... ومنهم : حسن القضاء ، سيء الطلب ... فتلك : بتلك ... ألا وشرهم : سيء القضاء ، سيء الطلب ... ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ... أما رأيتم إلى حمرة عينيه ؟ وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحس بشيء من ذلك : فيلصق بالأرض ... قال : وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقى منها شيء فقال صلى الله عليه وسلم : ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها ، إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه» . (رواه الترمذى فى « الفتن » بسند صحيح)

ومعنى : بطيء الغضب ، سريع الفيء : أى الرجوع ... فلا يغضب بسرعة ... وإذا غضب : عاد للصلح بسرعة ... وهذا خير الناس .

ومعنى حسن القضاء ، حسن الطلب ... أى : سهل فى دفع ما عليه وطلب ماله .

مَاوَرَدَ فِي السَّلَام

قال الله تعالى : (وإذا حييتم بتحية ، فحيوا بأحسن منها أو ردوها ... إن الله كان على كل شيء حسيبا) .

وقال تعالى : (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا : سلاما ، قال : سلام . . . فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) .

وقال تعالى : (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ، سلام قولا من رب رحيم) . صدق الله العظيم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ... أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم ».

(رواه أبو داود والترمذي ومسلم)

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليكم ، فرد عليه السلام ، ثم جلس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : عشر . . ثم جاء آخر ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فجلس ، فقال : عشرون ... ثم جاء آخر ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد عليه ، فجلس ، فقال : ثلاثون » .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن أولى الناس بالله تعالى : « من بدأهم بالسلام » .
(رواهما أبو داود والترمذي)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اعبدوا الرحمن وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام : تدخلوا الجنة بسلام » . (رواه الترمذي بسند حسن)

ما ورد في « السلام » .. قبل الكلام « والسلام » على الأهل .. والصبيان

عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « السلام قبل الكلام » ...

فالسلام : مقدم على الكلام ؛ لأن السلام : أمان ، ولا كلام إلا بعد الأمان .

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تدعوا أحداً إلى الطعام حتى يسلم » . (رواهما الترمذي)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يسلم الراكب : على الماشي ، والماشي : على القاعد ، والقليل : على الكثير » . (رواه الأربعة)

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : « يا بنى إذا دخلت على أهلك فسلم ، يكون بركة عليك ، وعلى أهل بيتك » . (رواه الترمذى بسند حسن)

وعن سيار رضى الله عنه قال : « كنت أمشى مع ثابت البنانى ، فر بصبيان ، فسلم عليهم ، وقال : كنت أمشى مع أنس رضى الله عنه ، فر بصبيان ، فسلم عليهم ... وحدث أنس أنه كان يمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فر بصبيان ، فسلم عليهم » . رواه الخمسة .

وقال أنس رضى الله عنه : « انتهى إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا غلام فى الغلمان ، فسلم علينا ، ثم أخذ بيدى — أو أذنى — فأرسلنى برسالة ، وقعد فى ظل جدار — أو قال إلى جدار — حتى رجعت إليه » . (رواه أبو داود وابن ماجه)

ما ورد فى تبليغ « السلام »

عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة ، هذا جبريل ، يقرأ عليك السلام ، قالت : قلت وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ... ترى يارسول الله ، ما لا نرى » ؟ . (رواه الأربعة)

• • •

عن غالب رضى الله عنه قال : « إنا جلوس بباب الحسن رضى الله عنه ، إذ جاء رجل ، فقال : حدثنى أبى ، عن جدى ، قال : بعثنى أبى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إيته ، فأقرئه السلام ، قال : فأتيته ، فقلت : إن أبى يقرئك السلام ، فقال : عليك وعلى أبيك السلام » .

ما يكره فى « السلام »

عن أبى جرى الهجيمى رضى الله عنه قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : عليك السلام يا رسول الله ، فقال : لا تقل عليك السلام ، فإن عليك السلام : تحية الموتى » . رواه أصحاب السنن .

وزاد الترمذى : ثم أقبل على ، فقال : « إذا لقى الرجل أخاه المسلم فليقل : السلام عليكم ورحمة الله » .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما : « سلم رجل على النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو « يبول » ، فلم يرد عليه السلام » .
(رواه الترمذى وأبو داود)

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ليس منا من تشبه بغيرنا . . . لا تتشبهوا باليهود ، ولا بالنصارى ... فإن تسليم اليهود : الإشارة بالأصابع ... وتسليم النصارى : الإشارة بالأكف » . (رواه الترمذى)

فلو سلم باللسان وقرنه بإشارة اليد : فلا شيء فيه ... لأن المكروه : الإشارة فقط : كعمل أهل الكتاب ، ومثلها : ما جرت به عادتهم من قولهم : « نهارك سعيد ، أو ليلتك سعيدة » .

حكم « السلام » .. وردّه

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خمس تجب على المسلم لأخيه : رد السلام ، وتشميت العاطس ، وإجابة الدعوة ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز » رواه الخمسة .

وعن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يجزىء عن الجماعة إذا مروا : أن يسلم أحدهم ، ويجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم » . (رواه أبو داود)

* * *

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس : فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم : فليسلم ... فليست الأولى بأحق من الآخرة » . (رواه أصحاب السنن)

لا « سلام » على أهل الأهواء

فلا يشرع السلام على فاسق ، وفاجر ، ومبتدع ، ونحوهم ... وبالأولى : الكافر : فإن قطع هؤلاء : مطلوب ، وبغضهم محبوب ، ما داموا فى أهوائهم : مصداقاً لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من أحب لله وأبغض لله : فقد استكمل الإيمان » . . .

• • •

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا تسلموا على من يشرب الخمر ، ولا تعودوهم إذا مرضوا ، ولا تصلوا عليهم إذا ماتوا » (رواه سعيد بن منصور هكذا ...والبخارى)

وهذا : للزجر ... أو : إذا استحلوا الخمر .

المصافحة .. والمعانقة

المصافحة : وضع اليد فى اليد عند المقابلة ... وهى من تمام التحية ، ومكفرة للذنوب ، وموجبة للألفة والمحبة ... وهى سنة مجمع عليها عند اللقاء . . . إلا مع المرأة الأجنبية .

قال ابن مسعود رضى الله عنه :«علمنى النبى صلى الله عليه وسلم التشهد ، وكفى بين كفيه» . (رواه البخارى)

وقال قتادة رضى الله عنه : «قلت لأنس : أكانت المصافحة فى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم» .
(رواه البخارى والترمذى)

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان ، إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا» . (رواه أبو داود والترمذى)

وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله واستغفراه : غفر لهما» . (رواه أبو داود وابن السنى)

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : لما جاء أهل اليمن ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قد جاءكم أهل اليمن ، وهم أول من جاء بالمصافحة»
(رواه أبو داود)

وعنه قال : قال رجل يا رسول الله ، الرجل منا يلقى أخاه — أو

صديقه — أينحنى له ؟ قال : لا . . . قال : أفيلتزمه ويقبله ؟ قال : لا . . . قال : أفيأخذ بيده ويصافحه ؟ قال : نعم » .

وعنه قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا استقبله الرجل فصافحه : لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل : هو الذى ينزع ، ولا يصرف وجهه عن وجهه : حتى يكون الرجل هو الذى يصرفه ، ولم ير مقدما ركبتيه بين يدى جليس له » ! !

وعن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من تمام التحية : الأخذ باليد » . (روى هذه الثلاثة : الترمذى)

• • •

قيل لأبى ذر رضى الله عنه : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصافحكم إذا لقيتموه ؟ قال : ما لقيته قط إلا صافحنى ... وبعث إلى ذات يوم ولم أكن فى أهلى ، فلما جئت : أخبرت أنه أرسل إلى ... فأتيته ، وهو على سريره ، فالتزمنى ، فكانت تلك : أجود وأجود » .

ومعنى « التزمنى » : أى عانقنى ، فكانت تلك الفعلة : أحسن عندى من المصافحة ... لما أفاض على من جسده وروحه صلى الله عليه وسلم . . .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « قدم زيد بن حارثة رضى الله عنه المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى ، فأتاه ، فقرع الباب ، فقام إليه النبى صلى الله عليه وسلم ، فاعتنقه وقبله .

(أى قبله بين عينيه ، شوقاً إليه . . . لأنه كان فى سفر) ...

الكتابة .. وآدابهـا

قال الله تعالى : (اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعـلم) .

وقال تعالى منبئاً عن كتاب سليمان عليه السلام لبلقيس « ملكة سبأ » : (إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلو على وأتونى مسلمين) .

• • •

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه ذكر رجلا من بنى إسرائيل أخذ خشبة فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه كتب فيها : « من فلان إلى فلان » .
(رواه البخـارى)

عن أبى سفيان رضى الله عنه أن « هرقل » أرسل إليه فى نفر من قريش — وكانوا تجاراً بالشام — فأتوه ، ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرىء ، فإذا فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله ، إلى « هرقل » عظيم الروم .. السلام على من اتبع الهدى . . . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام » .

(رواه الأربعة)

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه كاتب ، فسمعته يقول : ضع القلم على أذنك ، فإنه أذكر للمملى » . (رواه الترمذى)

لأن القلم : لسان ثان يترجم عن القلب . . والأذن محل الاستماع . .

(ومعنى وضع القلم على الأذن : ربط للحواس وجمع لها . . فيكون أقوى وأذكر لها) .

ومن آداب الكتابة : « تتريب » المكتوب بعد كتابته : لما روى : « تربوا صحفكم ، فإنه أنجح لها . . ومنه ما حدث الآن ، من ورق « النشاف » المعروف .

• • •

عن أنس رضى الله عنه قال : « لما أراد نبى الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى العجم ، قيل له : إنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه خاتم . . فاصطنع خاتماً . . قال : فكأنى أنظر إلى بياضه فى كفه » .

(رواه الترمذى)

• • •

أنزلوا الناس منازلهم

قال الله تعالى : (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، ليبلوكم فيما آتاكم . . إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم) .

عن عائشة رضى الله عنها ، أنها مرّ بها سائل ، فأعطته كسرة . . ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة ، فأقعدته ، فأكل ، فقيل لها فى ذلك ، فقالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنزلوا الناس منازلهم » . (رواه أبو داود ومسلم)

فلما كان الأول بحال تناسبه الكسرة ، وتكفيه : أمرت له بها . . ولما كان الثانى تظهر عليه الوجاهة : كأنه غنى قوم افتقر : أمرت بإجلاسه وإكرامه . . . فسألوها ، فقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أنزلوا الناس منازلهم — أى راجعوا — أقدارهم ومراتبهم » .

وتفضيل بعضهم على بعض : فى المجالس ، وفى القيام . . ونحو ذلك .

عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

« إن من إجلال الله : إكرام ذى الشيبة المسلم ، وحامل القرآن ، غير الغالى فيه ، والجافى عنه ، وإكرام ذى السلطان المقسط » .

(رواه أبو داود بسند حسن)

من تعلم لغة قوم .. أمن .. من شرهم

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : « أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم له كتاب يهود ، قال : إنى والله ما آمن يهود على كتاب ، قال : فما مر بى نصف شهر حتى تعلمته . . . فلما تعلمته : كان إذا كتب إلى يهود : كتبت إليهم ، وإذا كتبوا إليه : قرأت له كتابهم » .

(رواه الترمذى بسند صحيح)

كظم الغيظ .. وعدم الغضب

قال الله تعالى : (الذين ينفقون فى السراء ، والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس . . والله يحب المحسنين) . .

(صدق الله مولانا العظيم)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس الشديد بالصرعة . . إنما الشديد : الذى يملك نفسه عند الغضب » . (رواه الثلاثة)

وعن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما تعدون الرقوب فيكم ؟ قلنا : الذى لا يولد له . . قال : ليس ذاك

بالرقوب ، ولكنه الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئاً : قال : فما تعدون الصرعة فيكم ؟ قلنا : الذى لا يصرعه الرجال . . قال : ليس بذلك ، ولكنه : الذى يملك نفسه عند الغضب .
(رواه مسلم وأبو داود)

وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما صور الله آدم فى الجنة : تركه ما شاء الله ، فجعل إبليس يطوف به . . . ينظر : ما هو ؟ فلما رآه أجوف : عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك » . (رواه مسلم)

عن سهل بن معاذ رضى الله عنهما عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كظم غيظاً ، وهو قادر على أن ينفذه : دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره ، من أى الحور العين شاء » !!؟ . (رواه أبو داود والترمذى)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : علمنى شيئاً ولا تكثر على ، لعلى أعيه . . . قال : « لا تغضب » فردد ذلك مراراً . . كل ذلك يقول : « لا تغضب » .
(رواه الترمذى والبخارى وأحمد)

عن عائشة رضى الله عنها قالت : صنع النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فرخص فيه ، فتنزه عنه قوم ، فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم ،

فخطب ، فحمد الله ، ثم قال : « ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ؟ فوالله إنى لأعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية » .

(رواه الشيخان)

وعنها ، قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن « الرجل » الشيء : لم يقل : ما بال فلان يقول كذا ؟ ولكن يقول : « ما بال أقوام يقولون كذا وكذا » ؟ (رواه أبو داود)

العفو وتحمل الأذى .. فضيلة

قال الله تعالى : (ولمن صبر وغفر . . إن ذلك لمن عزم الأمور) .

وقال تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) .

عن أبي موسى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أحد أصبر على أذى يسمعه : من الله تعالى . . . إنهم يجعلون له نداً ، ويجعلون له ولداً ، وهو — مع ذلك — يرزقهم ويعافيهم ! ! ».

(رواه الشيخان)

وعن عبد الله رضى الله عنه قال : « قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسمة . . كبعض ما كان يقسم ، فقال رجل من الأنصار : والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله ! قلت : أما لأقولن للنبي صلى الله عليه وسلم . . فأتيته ، وهو فى أصحابه ، فساررته . . فشق ذلك عليه ، وتغير وجهه ، وغضب . . حتى وددت أنى لم أكن أخبرته . . ثم قال : أوذى أخى موسى بأكثر من ذلك . . فصبر » .

(رواه الشيخان والترمذى)

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أعطى أحد عطاء : خيراً وأوسع من الصبر » . (رواه الخمسة)

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة منبرية

كتاب الله

أحمد الله تعالى على حلمه بعد علمه ، وعلى عفوه بعد قدرته . .

كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له . . عز كل ذليل ، وقوة كل ضعيف ، وغنى كل فقير ، ومفزع كل ملهوف . .

من تكلم : سمع نطقه ، ومن سكت : علم سره ، ومن عاش : فعليه رزقه ، ومن مات : فإليه منقلبه .

وأشهد أن لا إله إلا الله : واحد بلا عدد ، وقائم بلا عمد ، ودائم بلا أمد . . لا يشغله سائل ، ولا ينقصه نائل . . عظمت حكمته ، وجلت قدرته . . يرغب عباده فى طاعته ومعرفته : فيقول فى حديثه القدسى الجليل للكرام الكاتبين :

« إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة : فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها : فاكتبوها بمثلها . . وإن تركها من أجلى : فاكتبوها له حسنة : وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها : فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها بعشر أمثالها . . إلى سبعمائة ضعف » !

يـارب :

أنا العبد المقـــر بكل ذنب وأنت السيد المولى الغفور

فإن عاقبتنى : فبسوء فعلى وإن تعفو : فأنت به جدير

وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا وعظيمنا محمداً رسول الله : سيرته خير سيرة ، وعترته خير عترة ، وشجرته خير شجرة . . نبتت فى حرم ، وبسقت فى كرم . . .

هو الأمى الذى علم المتعلمين ، واليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب البائسين ، والهادى الذى قاد سفينة العـــالم الحائرة فى خضم المحيط ومعترك الأمواج ، إلى شاطىء الله رب العالمين . .

دعا إلى مكارم الأخلاق وحميدها ، ورفيع الشمائل . . فنادى على البشرية قائلا :

« إن فى الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها . . قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال : لمن طيب الكلام ، وأدام الصيام ، وأطعم الطعام ، وصلى بالليل والناس نيام » .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يـا داعياً للواحـــد الـديان يا هازماً للبغى والطغيـــان

يـا رافعاً صوت العدالة عالياً ومؤذناً فى النـــاس بالقرآن

صلى عليك الله يا علم الهدى . . . ما هبت النسائم ، وما ناحت على الأيك الحمائم .

أما بعد : فيا حماة الإسلام وحراس العقيدة :

فإن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام الخالد الذى لا تبلى جدته ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد .

يقول الله تبارك وتعالى فى كتابه العزيز :

(الله نور السموات والأرض) ويقول عنه أيضاً : (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا) ، ويقول عن رسوله العظيم : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) . . .

فتأمل يا أخى هذا النظم الفريد ، وهذا العقد الربانى المجيد : الله نور ، والقرآن نور ، والرسول نور . . والوظيفة التى من أجلها نزل الكتاب وبعث أمير الأنبياء : هى إخراج الناس من الظلمات إلى النور . . (ألر ، كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) .

فهذه الأمة المنوط بها هذا الشرف العظيم ، المنزل عليها هذا الكتاب الكريم : واجب عليها أن تعيش فى هذا النور ، لتأخذ مكانتها فوق قبة الفلك فى باذخ العلياء . . ولا يليق أن تحيد عنه أو تصعر خدها له ، فتنحدر إلى فلول الدجى وغياهب الظلمات وحضيض الغبراء ، وتخبط خبط عشواء فى ليلة ظلماء .

يقول سيد الخلق وحبيب الحق : « كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم ، إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم » . . . ثم تلا

قوله تعالى : (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) .

إننى أخط هذه السطور والذكريات المجيدة تتزاحم أمامى من مواكبها المقدسة : يوم وحد القرآن هذه الأمة وجمع شملها ، وقوى بنيانها ، وأزال ما بها من الشقاق ، ووقف بها على أركان المودة والوفاق . . .

يوم كان المسلم يتنقل فى أسفاره فى بلاد ترفرف عليها راية التوحيد ، ويوم مدت مكة ذراعيها : احداهما إلى قرطبة ، والأخرى إلى دلهى . . ويومها كان القرآن قد أزال الحواجز والموانع والفواصل . .

كان المسلم فى تجواله وترحاله وهبوطه وصعوده من أقصى البلاد الإسلامية إلى أقصاها : سواء أشأم ، أو أعرق ، أو أغرب ، أو أشرق . لم يكن يستوقفه « شرطى » يطلب منه جواز المرور ، أو تأشيرة الدخول والخروج . .

لأن هذه الأرض — التى كان يسير عليها — أرض أشرق فيها نور التوحيد ، وارتفع عليها لواؤه ، ورفرفت فوقها رايته . .

الله فوق الخلق فيها وحـــده · والناس تحت لوائه أكفـاء

وإنى ليحزننى اليوم ؛ أن أرى الفرقة ضاربة أطنابها بين شعوب الأمة الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها .. فى الوقت الذى نسمع فيه هذا التصريح الخطير لأحد المسئولين فى إسرائيل ، والذى يقول فيه :

إن لإسرائيل مطالب إقليمية ودينية فى أجزاء من الأرض التى احتلتها ، لأن إسرائيل قامت على ثلاثة مقومات :

١ — التوراة ٢ — الشعب اليهودى ٣ — أرض الميعاد

فهل آن الأوان للأمة الإسلامية أن تنفض عن نفسها عوامل الشقاق والفرقة ، وتنتبه إلى ما يحيط بها من الخطوب المدلهمة ، والمحن القاسية القاتلة الفاجعة ؟ !

أما آن لأمة القرآن أن تكرم هذا الكتاب وتستضىء بهديه ؟

إن هذا التصريح الرسمى على لسان بعض المسئولين فى دولة ، الصهيونية ، ليس فيه خفاء ولا غموض ولا مواربة .

بل لقد كشف النقاب عن نفسه ، وأماط اللثام عن نوايا سريرته .

وإذا نحن نقبنا فى بطون التاريخ واستقرأنا صفحاته : لرأينا أن هذا الكتاب الكريم كان القوة التى تأخذ بيد المسلمين فى جميع الميادين ، وتدفع بهم إلى النصر ... فقد استمسكوا بما جاء فيه ولزموه ورتلوا آياته وعملوا بها ... فكانوا فى سلمهم وحربهم : صادقين مع كتاب الله . كانوا فى سلمهم : قرآنا يمشى بين الناس ...

غزا القرآن قلوبهم بنوره ، وأضاء بيوتهم بكواكبه الدرية : حتى كان المسلم إذا دخل بيته سألته زوجته : كم نزل اليوم من القرآن ؟ وكم حفظت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

سؤالان تبادر بهما الزوجة عندما تفتح الباب لزوجها ، حتى لا يفوتها شرف الوقوف على ما نزل من نور السماء ليتصل بأرض الصحراء ، فينبت فيها ويثمر ... ثم تقرن ذلك بالسؤال عما جاء على لسان البشير النذير محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى .

فقد علمهم أستاذ الإنسانية الأكبر أن ينقلوا ما جاء عنه كما سمعوه منه ، ودعا لهم بالنضرة حيث يكون : « نضر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، ثم أداها كما سمعها ... فرب حامل فقه ليس بفقيه » .

كان المسلمون فى حربهم كما وصفهم قادتهم : فرساناً بالنهار ... رهباناً بالليل ... لهم دوى بالقرآن كدوى النحل ... فكانت قوة الكتاب فى صدورهم تبعث الرعب فى قلوب أعدائهم ... وكان نور القرآن فى أفئدتهم يضىء لهم الطريق إلى مكان الأعداء فيمكنهم من رقابهم ... حتى لقد وقف « هرقل » فى مدينة « أنطاكية » (أكبر مدن الإقليم الشرقى فى الامبراطورية الرومانية) ... وقف يلقى هذا السؤال الحائر على أسماع كبار قواد جيشه ... يلتمس منهم الجواب الشافى بعدما نفذ صبره ، وغلا مرجل الغيظ فى قلبه ... ثم انفجر قائلا لقواد جيشه :

من هؤلاء الذين يحاربونكم ؟ أبشر أم ملائكة ؟

ويخيم الصمت الرهيب على قادة الرومان ، فيطلب منهم الجواب بصراحة ، فيقوم أحدهم فيقول :

إنهم بشر ياسيدى ! ولكنهم يصومون النهار ... ويقومون الليل ... لا يشربون الخمر ، ولا يلعبون الميسر ... نحمل عليهم فيصبرون ، ويحملون علينا فيصدقون ... أما نحن فنحمل عليهم فلا نصدق ، ويحملون علينا فلا نصبر) . .

فتنفذ هذه الإجابة إلى سمع « هرقل » عظيم الروم ، وتغلغل فى نفسه ، فيرفع رأسه قائلا لقواده ، والمرارة تملأ عليه أقطاب وجدانه : (لئن كانوا كما قلتم : فليملكن موقع قدمى هاتين) ...

• • •

لقد كان ما قاله « هرقل » أمراً واقعاً . . .

فلقد جاء اليوم الذى جعل فيه المسلمون من البحر الأبيض والبحر الأحمر بحيرتين صغيرتين تجريان فى أرض الإسلام ، وترفرف عليهما راية القرآن .

فما السر فى هـــذا ؟

لقد أخذ الله على نفسه وعداً — ووعد الله لا ينخلف — : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد) .

وأكد فى كتابه هذا الوعد ، فقال : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) .

ثم بين كيفية هذا النصر لمن يكون ؟ فقال : (إن الله يدافع عن الذين آمنوا . . . إن الله لا يحب كل خوان كفور ، أذن للذين يقاتلون

بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ٥ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . . . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض : لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ... ولينصرن الله من ينصره ... إن الله لقوى عزيز ٥ الذين إن مكناهم فى الأرض : أقاموا الصلاة ، و آتووا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ... ولله عاقبة الأمور) ...

فوالله لو أكرمنا كتاب الله : ما أهاننا أحد ... ولو لزمناه : لرفرفت راية التوحيد خفاقة على كل بلد .

يا أمة الإسلام :

إذا كان الكون قرآنا صامتاً ، فإن القرآن كون ناطق ... فلتكونوا أنتم قرآناً يمشى بين الناس : يرشد الضال ، ويهدى من تنكب على طريق الجادة ، ومد يده إلى كل حائر عائر فى لجج البحار المتلاطمة .

إذا كانت الصهيونية تتبجح ولا تستحى ، وتصرخ ولا تتوارى ، وتعلن أنها قامت على التوراة : فأولى بأهل الحق أن يقولوا لهم — بدون مواربة — إنهم قاموا على القرآن . . . والقرآن حق .

إن تاريخ الأمة الإسلامية مع اليهود والصهيونية حافل بالمخاطر . . . ملىء بالأحداث الجسام . . . مفروش بالأشواك ، أحاطت بجانبه الأحراش التى أوت إليه العقارب والحيات . . .

إذا سلم السائر فيه من نهشة الثعبان ، فقد لايسلم من لدغة العقرب .

إنه تاريخ يضرب بجذوره فى باطن الأرض ، حيث عداء اليهود والصهيونية السافر للإسلام الحنيف منذ فجره .

فاليهود هم الذين وقفوا للدعوة يكيدون لها بطريق الدس والفتنة .

ويوم انتصر المسلمون فى « غزوة بدر » : هاجت عقارب البغضاء فى صدورهم ، وتحركت ثعابين الحقد فى نفوسهم ، وأرسلوا وفداً منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقولوا له :

يامحمد : لايغرنك إن كنت قد انتصرت على أهل مكة ... إنهم لايجيدون فنون القتال ، لو أنك نازلتنا : لعلمناك كيف تكون الحرب .

لعلهم بذلك كانوا يريدون أن يبعثوا الحرب النفسية بسمومها لتفعل فعلها فى صفوف المسلمين . . . ولكن : مالبث القرآن الكريم أن حسم الموقف بقوة ، وقصفه بعنف . . .

فهذا إنذار نزل به سفير الأنبياء جبريل عليه السلام ، يرد القرآن به على أولاد الأفاعى :

(قل للذين كفروا : ستغلبون وتحشرون إلى جهنم . . . وبئس المهاد ، قد كان لكم آية فى فئتين التقتا : فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين . . . والله يؤيد بنصره من يشاء . . . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) .

إن مافعله يهود بنى قينقاع ، ومافعله بنو النضير وبنو قريظة من مؤامرات دنيئة : لاتخفى على أحد ، . . وماقام به عبد الله بن سبأ —

اليهودى — الذين تظاهر بالإسلام ، وقد كان رأس الفتنة التى اندلعت نارها تقتل الخليفة المفترى عليه « عثمان بن عفان » رضى الله عنه . . . وماجت الفتنة بعد مقتله موج البحر تأكل الأخضر واليابس . . . والذى أثارها وأشعل نارها : هو « ابن سبأ » . . . ذلك الذى عشش الشيطان فى رأسه ، فباض الفتنة وفرخ الشقاق والفرقة . . إنه من المتآمرين على أمة الإسلام .

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا : اليهود والذين أشركوا) ...

ويمتد هذا العداء مع الأيام . . . حيث تريد قوى الشر أن تطفىء نور الله بأفواهها . . .

إن الحقائق تثبت ، والوقائع تؤيد ، والتاريخ يشهد أن الصهيونية العالمية التى أقامت دولة إسرائيل فى الشرق الإسلامى : تريد أن تقف أمام الأمة الإسلامية ، شاهرة السلاح فى وجهها .

فلقد صرح الصحفى الصهيونى النمسوى « هارتل » قديماً بتصريح قال فيه :

إن قيام دولة اليهود فى سوريا أو فلسطين : تكون امتداداً للحضارة الغربية ، وحصناً ضد الهمجية العربية ! !

إذا كان هذا التصريح قد مضى عليه أكثر من نصف قرن : فإنه — بالعمل الدائب المستمر من جانب هذه القوى — : قد أصبح ما قاله « هارتل » أمراً واقعاً . . .

فقد قامت إسرائيل ، وقامت لليهود دوله ! !

ولست أنسى هذا الموقف البغيض من قادة إسرائيل ، لما دخلوا بيت المقدس :

الآن : تكون ثأرنا لأجدادنا فى « خيبر » ! !

هذه الكلمة إنما تعرب عن نفس انطوت على الانتقام والثأر . . . لاتعرف إلا سفك الدماء ، ولاتدين إلا بلغة « المدفع » .

نفس لا تنسى الأحقاد ، ولا تتناسى البغضاء ! !

ألا فلتعلم الأمة المسلمة أن عدوها ماكر وخبيث . . . وعليها أن تتذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم :

إن جبريل أخبرنى أن أمتى مختلفة . . . قلت : فما المخرج ؟ قال : « كتاب الله » . . .

ألا فلتضع الأمة الإسلامية نصب عينيها هذه النصيحة النبوية الشريفة . . . ففيها السعادة الأبدية .

فإن الرسول الذى وصفه ربه بقوله : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم) . . والذى لما سئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن وصفه فى التوراة قال : والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن . . . قال الله تعالى :

(يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ، ومبشراً ، ونذيراً ، وحرزاً للأميين . . . أنت عبدى ورسولى . . . سميتك « المتركل » . . . ليس بفظ ، ولاغليظ ، ولا صحاب فى الأسواق . . . ولايدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر . . . ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء . . . بأن يقولوا لا إله إلا الله . . فيفتح بها أعيناً عمياً ، وآذاناً صما ، وقلوبا غلفا) . . . .

هذا الرسول الذى ثبتت له هذه الأوصاف — لما سأل جبريل عن المخرج من اختلاف الأمة ، قال له : كتاب الله تعالى ! ! !

نفسى لك الفداء يا رسول الله ! !

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء
لم يدانوك فى علاك ، وقد ... حال سناً منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل فما ... تصاو إلا عن ضوئك الأضواء

* * *

وهل هناك ما يعصم الأمة من الاختلاف : إلا أن تعمل بكتاب ربها ؟

إنه لنصح عظيم ، وتوجيه كريم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ... يريد أن يقدمه لكل من أراد أن يذكر ويعتبر . . .

فى كتاب الله : هذا النداء الخالد :

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . . . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءاً فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً . . . وكنتم على شفا حفرة من النار ، فأنقذكم منها . . . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . . . وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات . . . وأولئك لهم عذاب عظيم) .

والحمد لله أولا وآخراً . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

حينما بدانا نشر هذه السلسلة من كتب فضيلة الشيخ كشك غفلنا عن ذكر تسلسل حياته .. لانه غنى عن التعريف .. ولكن استجابة لرسائل القراء التى تصلنا من مختلف انحاء العالم الاسلامى والتى تطالبنا بمعرفة حياة الداعية الكبير نقدم لهم حياة المؤلف فى سطور :

- عبد الحميد عبد العزيز محمد كشك .
- من مواليد بلدة شبراخيت محافظة البحيرة عام ١٩٣٣ .
- التحق بجمعية تحفيظ القرآن الكريم ، حيث اتم حفظه القرآن وهو فى الثانية عشرة من عمره .
- التحق بالقسم الابتدائى بمعهد الاسكندرية الدينى .
- وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية ، انعم الله عليه بفقد البصر ، فواصل الطريق فى طلب العلم بجد ومثابرة ، بعد ما قضى حولين من عمره يطلب العلاج ، ولكنه حمد الله على قدره ، فان الله يعوض عن نور البصر ذكاء البصيرة .
- التحق بمعهد القاهرة الثانوى ، وكان الأول على فرقته دائما ، وحصل على مجموع مائة فى المائة عندما انتقل من الثالثة الى الرابعة فى القسم الثانوى ، وفى الشهادة الثانوية حصل على مجموع ٩٨ر٥٪ .
- التحق بكلية اصول الدين ، حيث حصل على الشهادة العالمية، وكان ترتيبه الأول ، ومثل الازهر الشريف فى عيد العلم عام ١٩٦١ .
- حصل على شهادة العالمية مع تخصص التدريس العالى .
- عمل اماما وخطيبا بمساجد وزارة الأوقاف .
- خطيب وامام مسجد عين الحياة (الملك سابقا) منذ عام ١٩٦٤

والآن يوجه دعوته على منبر مسجد عين الحياة بشارع مصر والسودان بالقاهرة .

الناشر

فهـــرس

الموضـــوع	الصفحة
مقـــــدمة	٥
النفحة الأولى : نعم الله على عباده	٧
النفحة الثانية : الذين تكلموا فى المهد	١٠
النفحة الثالثة : الشيطان وجنـــوده	١٥
النفحة الرابعة : حول الملائكة الكرام	٢٣
النفحة الخامسة : الأخذ الأخلاق	٢٥
فضـــيلة الصـــبر	٣٠
بيان حقيقة الصبر ومعناه	٣٦
أهـــوال يوم القيـــامة	٤٢
الصبر نصف الايمـــان	٥٠
المميات التى تتجدد بالصبر	٥٣
أقســـام الصـــبر	٥٦
بيان مظان الحـــاجة الى الصبر	٦٢
دواء الصبر وما يستعان به	٨١
مكر الشيطان	٩١
من آداب المجالس	٩٧
حق الولد على الوالد	١٠١
النهى عن التشاؤم	١٠٤
المواليد فى الاسلام	١٠٤
أدب الاسلام فى النداء	١٠٤
أدب الألفـــاظ	١٠٥
خلق الأشـــياء	١٠٧
طبقات بنى آدم	١١٠

الموضـــوع	الصفحة
ما ورد فى السلام	١١٢
ما ورد فى السلام قبل الكلام	١١٣
ما ورد فى تبليغ السلام	١١٤
ما يكره فى السلام	١١٥
حكم الســـلام ورده	١١٦
المصافحة والمعـــانقة	١١٧
الكتابة وآدابهـــا	١٢٠
أنزلوا الناس منـــازلهم	١٢٢
من تعـــلم لغـــة قـــوم	١٢٣
كظلم الغيظ ، وعدم الغضب	١٢٣
العفو وتحمل الأذى فضيلة	١٢٦
خطبة منبرية	١٢٧

مطابع الأهرام التجارية — القاهرة — مصر